

عالم البحر في معتقدات سكان المغرب

ثلاثة ليس لها أمان البحر والسلطان والزمان

هكذا كانت العامة في المغرب تتصور البحر، حسب اليوسي¹ في القرن XVII. فالبحر لا أمان له، وهو «خلق عظيم، يركبه خلق صغير، دود على عود»²؛ وركوبه يعني ركوب الأهوال³... وزعم بعضهم، حسب الجاحظ⁴، أن «دوام النظر إلى البحر» يعتبر من الأشياء التي «تخلق العقل وتفسد الذهن».

وهذا "الخلق العظيم" كان له إله يسيطر عليه في اعتقاد الفينيقيين والإغريق والرومان والمغاربة القدامى الذين عبدوا آلهة البحر أو تقربوا إليها بأشكال مختلفة، بهدف اتقاء شر البحر الذي تصوره القدامى كائنا جبارا ثم خصوه بالعبادة. ويتجلى هذا "الجبروت" من خلال بعض المصطلحات والتعابير التي استعملها المغاربة في بعض المناطق الساحلية إلى غاية القرن العشرين، وبعضهم ما زال يستعملها إلى اليوم؛ ومن خلال تمثيل القدامى للبحر في بعض أعمالهم الفنية التي عكست عتو هذا "السلطان" وشدته وشراسته... كما يظهر ذلك جليا في "ساترة القرميد" التي عُثر عليها في ميدان ليكسوس، أو في الفسيفساء التي تمثل الإله المحيط في المدينة نفسها.

وكان المزعوم سكولاكس وحنون قد أشارا في رحلتهما إلى المعبد الذي أقامه القدامى فوق رأس صولوبيس وكرسوه لپوصيدون في منطقة "جد مقدسة" حسب سكولاكس؛ وهو تقديس مازالت بعض آثاره ظاهرة في قباب ومزارات "رجال السواحل" في هذه المنطقة.

ومعلوم أن الصيادين في شواطئ المغرب الأطلنطكية كانوا إلى غاية القرن XX يضعون أنفسهم تحت حماية أولياء الساحل ويتقربون إليهم بالأضاحي أو بجزء من صيدهم، بغية إرضائهم. ألم يفكر الزباني، لما هاج البحر وأشرف مؤرخنا على الهلاك، في «ذبح الباشدور العثماني تقريبا للبحر»؟! وتجلت بعض مظاهر تقديس البحر وإرضاء آلهته أو رجاله "أهل الإغاثة" في المغرب، في بعض المواسم الوثنية الأصل كالعنصرة التي تعتبر من التقاليد القديمة جدا في شمال إفريقيا حيث كانت تقام في الأصل، على الأرجح، على شرف إله البحر نبتون.

وتأثير البحر وعالم آلهته بارز في مجموعة من المدن المغربية القديمة حيث مثل نبتون وآلهة الموج وحوريات البحر والإله المحيط ومخلوقات البحر العجيبة الأخرى التي احتفظت ذاكرة المغاربة الجماعية ببعض أساطيرها كالأخطبوط

¹- اليوسي، المحاضرات، ج 1، ص ص. 209-210.

²- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 3، ص. 178.

³- اليوسي، المحاضرات، ج 2، ص. 640 : "مصاحبة الأشرار ركوب البحر"؛ وانظر كليلة ودمنة، صيدا، المكتبة العصرية، 2005، ص. 13 " (...). ولقد كنت أسمع أن فيلسوفا كتب إلى تلميذه يقول : إن مجاورة رجال السوء، والمصاحبة لهم كراكب البحر، إن هو سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف."؛ ص. 65 : "وقد قيل: إن خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خطر، منها : صحبة السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة العدو".

⁴- الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص. 572.

العملاق، والقرع بن نمري، والسماك الصغير الذي نزل من السماء، والثعبان الطائر بذنب سمك... وتوارثت أجيال من المغاربة في بعض المناطق الساحلية خرافات تتعلق بالتكهن بالمستقبل بواسطة أصدااف البحر، بل منهم من زعم أنه يكلم الحمار تكليما، ومنهم من قدس بعض الأسماك وأطعمها وقرطها وحرس مزاراتها إلى اليوم. وزعم القزويني (هيودوت القرون الوسطى) أن الناس كانوا يتبركون في نواحي سبتة بنسل سمكة موسى التي عادت إلى البحر بعد شيها ! ولم يقتصر الأمر في هذه الأساطير المرتبطة بالبحر فقط على الأسماك، بل تعداها ليشمل حيوانات أخرى كتلك الجياد الأسطورية التي تخرج من المحيط ليلا، حسب زعم بعضهم، في شواطئ المغرب الأطلنطية، لتنزو على الحجور التي تلد بعد ذلك عتاق خيل فريدة من نوعها. فهل لذلك علاقة بتصور الإغريق لإلههم پوصيدون الذي مثله وهو يمشي عباب البحر ممتطيا عربة تجرها خيول ميثية ؟

فلقد كان البحر ومازال في اعتقاد بعض المغاربة مجالا مقدسا طاهرا لا يجوز تنجيسه. وتخصت آلهته بالعبادة دائما في شواطئ شمال افريقيا حسب هيودوت، وذلك قبل أن يتعرف الإغريق على پوصيدون الذي كانت له القدرة المطلقة على البحر.

1 - آثار عبادة آلهة البحر في المغرب القديم :

بالرغم من شح المعلومات المتعلقة بالبحر والملاحة في الشواطئ المغربية في المراجع الأجنبية والمصادر العربية¹، فإن ما وصلنا من أوصاف وملاحظات، على ندرتها، تثبت عبادة الآلهة البحرية الفينيقية - البونية الأصل في المغرب القديم². وسلوك المغربي وتصوره للبحر، إلى غاية العصر الحديث، لا يختلف في جوهره عن سلوك وتصور الإغريقي القديم لعالم البحر وكائناته، وذلك في مجالات شتى نذكر من بينها على سبيل المثال : أدب ركوب البحر والتقرب إلى آلهته، ومخلوقات البحر العجيبة وإغاثة السفن والعبادات (العنصرة نموذجاً)... وتعود عبادة آلهة البحر والأضاحي التي كانت تقدم لها، قبل الإبحار وبعده، إلى عصور موهلة في القدم. ولقد أشار المؤرخ پوليبوس³ (Polybe) إلى ذلك في حديثه عن بند من بنود المعاهدة التي وقعت سنة 348 ق.م. بين روما وقرطاجة، وهو بند يهم البحارة الرومان.

¹ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, Paris, 1920, p. II.

² -TARRADELL (M.), *Marruecos púnico*, Tetuán 1960, p.112, fig.31 ; FANTAR (M.), *Le dieu de la mer chez les Phéniciens et les Puniques*, Rome 1977 ; *Id.* La religion phénicienne et punique de Lixus : témoignages de l'archéologie et de l'épigraphie, in : *LIXUS*, Actes du colloque organisé par l'Institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989, Paris-Rome 1992, pp. 115-121.

³ -POLYBE , III, 22 : « Les Romains et leurs alliés ne navigueront pas au-delà du cap Beau, à moins d'y être poussés par la tempête ou chassés par leurs ennemis ; s'ils le dépassent en cas de force majeure, il ne leur sera permis d'acheter ou de prendre que ce qui leur sera nécessaire pour radoubier leur vaisseau ou pour faire un sacrifice. » ; SAINT DENIS (E. de), *Le rôle de la mer dans la poésie latine*, Lyon 1935, pp. 27-28 :

بحث حول الفترة التي بدأ الرومان يبنون خلالها المعابد المخصصة للنيبتون وبورتونوس .

وكان البحارة الإغريق القدامى يقدسون بوصيدون¹ (Poséidon) ويستعطفونه لحماية سفنهم والسماح لهم بالذهاب والعودة بسلام. كما كانت الإلهة إيزيس² (Isis) تعتبر أيضا، حامية السفن والملاحين.

وتعتبر ظاهرة التقدّمات التي كان البحارة القدامى يتقربون بها إلى آلهة البحر بعد نجاحهم من الغرق موعلة في القدم. ولقد حدثنا فرجيل³ (Virgile) عن شجرة زيتون مقدسة في شاطئ Laurente كان البحارة الإيطاليون يعلقون على أغصانها نذرهم شكرا للآلهة التي نجتهم من الموت في البحر. كما كان الملاحون الناجون من الموت يعلقون الملابس التي كانوا يرتدونها في البحر على جدران المعابد، بعد أخذهم العهد على أنفسهم بإهدائها للإله الحامي⁴.

ولقد أشار فوفيل⁵ (J. -J. Fauvel) إلى قبة "سيدي عبد الرحمن" الموجودة على بعد 10 كلم جنوب الدار البيضاء، فوق حشفة يمكن الوصول إليها مشيا على الأقدام خلال الجزر؛ وهي حشفة تعتقد العامة أنها مقدسة، وتعتقد فوق قممتها حرقا وحصل الشعر كنذر.

وكان دوطي (Ed. Doutté)⁶ قد ذكر أن المعلومات التي وصلتنا عن معتقدات الأهالي القديمة في المغرب وآلهتهم الأولية تعتبر نادرة ولا تمكننا بالتالي من تكوين فكرة صحيحة عن هذه المعتقدات وتلك الآلهة، كما لا تمكننا هذه المعلومات من فهم وتفسير بعض الممارسات التي لا تمت في جوهرها إلى الإسلام بصلة. وبالرغم من قول دوطي هذا فإن برونو (L. Brunot)⁷ يرى أن البحر كان يُخص بالعبادة في المغرب، واعتبره بعض المغاربة قديما إلهًا يعبد بسبب الخوف الشديد الذي ولّده البحر في أنفسهم كمصدر للعجائب الخارقة ولأخطار لا تحصى.

¹ -SCHMIDT (J.), *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Paris 1985, pp. 258-260 ; GRANT (M.) et HAZEL (J.), *Dictionnaire de la mythologie*, Coll. Marabout université, 1975, pp. 299-303 ; BABELON (E.), *Catalogue des monnaies grecques de la Bibliothèque Nationale*, Paris 1893, p. CLX :

" (...) كانت عبادة إله البحر راسخة في مدن شاطئ فينيقيا. وتمثل نقود ببيروت بوصيدون ممثليا عربية تجرها أفراس بحرية ؛ وخلال العصر الروماني يظهر بوصيدون على بعض النقود الأروادية (...) "؛ وانظر أيضا ص. 165 ، 166 ، 170 ، 174 ، 176 ، 178 ، 179 ، 180 ، 187.

² -PETRONE, *Le Satiricon*, Gallimard 1969, p. 244, n.168 ;

وانظر: **معجم الحضارة المصرية القديمة**، الطبعة الثانية، 1996 ، ص ص. 77-76 : "(...) امتدت عبادة إيزيس في عهد البطالمة والرومان، إلى ما بعد حدود مصر، وكان لها معابدها وكهنتها، وأعيادها وأسرارها الدينية في كافة جهات العالم الروماني حيث صارت تمثل الربة العامة للكون كله. "أنا أم الطبيعة كلها، وسيدة جميع العناصر، ومنشأ الزمن وأصله، والربة العليا، وملكة الأشباح، وأولى سكان السماء، والنموذج العام لجميع الآلهة والربات. أحكم ذرات السماء ونسمات البحر الخيرة، وسكون الجحيم المقفر؛ وأسيرهم كيفما أشاء". وربما عبدت هذه الإلهة المصرية في تمودة، فلقد نقش اسمها على عدد كبير من القطع النقدية حيث مثلت أيضا رموز هذه الإلهة : المزهري، والشمس بين قرني بقرة، ونجمة سداسية مع هلال، الشيء الذي قد يثبت أن عبادة إيزيس كانت منتشرة بين سكان هذه المدينة. وربما اكتست عبادة هذه الإلهة في المغرب أهمية أكثر مع قدوم كليوباترة سيليني، زوجة يوبا الثاني، وبنت الملكة المصرية كليوباترة ومارك أنطون ؛ انظر بحثنا : **تمودة**، ص. 73 .

³ -VIRGILE, *L'Enéide*, trad., inrtod. et notes par M. Rat, Paris 1965, p. 273 :

" (...) شاعت الصدفة أن تنبت في ذلك المكان شجرة زيتون بري بأوراقها المرة، وكانت مكرسة لفونوس. وكان البحارة يكرمون هذه الشجرة منذ عهد قديم ؛ فكلما نجوا من الغرق كانوا يعلقون عليها قرابينهم للإله المذكور (...) ".

⁴ -HORACE, *Odes et Epodes*, Texte établi et traduit par F. Villeneuve, Paris 1981, I, 5,14 :

" (...) أما أنا، فلقد وضعت على السور المقدس لوحة نذرية تشهد بأنني نذرت ملابسني المبللة لإله البحر الأعظم ".

⁵ -MAROC, par J.-J. FAUVEL ; Coll. Guides bleus, Paris 1973, p. 232.

⁶ - DOUTTE (Ed.), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, 1909, p. 14 : « Qu'est-il resté d'intact dans la religion actuelle des indigènes de l'Afrique du Nord, de leurs croyances antérieures, de leurs divinités primitives ? Bien peu de choses... ».

⁷ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, pp. 1- 6 ;

وانظر ص. 4 من المرجع نفسه : " تجلى الأوقيانوس للإنسان ككائن حي أعلى، فعبد تلك القوة الهائلة والخفية ".

ومن الطبيعي أن يكون البحر قد خُصَّ قديما بالعبادة، فإن الخشية أجبرت الإنسان دوما على الاحترام والتقديس. فلقد جسد البحر المحيط قوة هائلة جهل الإنسان البدائي مصدرها وأصلها، فاعتقد أن هذه القوة ما هي إلا قوة كائن أعلى جبار، ثم عبدها. وهكذا ربطت جل الشعوب القديمة العلاقة بين البحر والآلهة.

ولاحظ برونو¹ في شاطئ الرباط وسلا أدلة تشهد على تأليه الأهالي للمحيط وعلى العبادة التي خصوه بها والتي ما زالت بعض آثارها موجودة، وإن لم تبق كما كانت في الأصل. فالبحر حسب هذه المعتقدات كائن حي لا يقبل بعض الأمور؛ فهو يهيج عند وفاة رجل صالح، ويضطرب عندما يسير فيه فلك يحمل رجلا خانة زوجه أو موادا محرمة كالخمر ولحم الخنزير (تأثير الإسلام)، أو جثة، وهو لا يطيق الطلبة عندما يتلون صلواتهم، كما لا يطيق السلطان لما يركبه.

ففي اعتقاد الأهالي كان البحر كائنا حيا مقدسا، لذلك سموه بالسلطان؛ ولقد سموه كذلك - في رأي برونو- لأنهم مسلمون، لكنهم يعطون لهذا الاسم المفهوم الذي يعطيه المسيحيون لكلمة عفريت. ولقد جاءت تسمية "سلطان" هاته نتيجة معتقدات خاصة مفادها أن البحر مقدس. وزعم سكان غرب المغرب، بما فيهم سكان المناطق الداخلية أن البحر-السلطان لا يحتمل السلطان-الملك، فالقوتان لا يمكنهما أن تتعايشا في نفس المكان. كما اعتقد أنه لو ركب السلطان البحر فإن مركبه سيغرق حتما، وأنه لما يركب في زورقه الملكي لعبور النهر والتوجه إلى سلا، فإن البحر يهيج. وبالرغم من كونه يوجد في النهر، فإن زورقه يترجح أكثر من العادة. وتساءل برونو عما إذا كانت هذه الظاهرة هي التي تفسر الطريقة التي اتبعها سلاطين المغرب القدامى في أسفارهم من فاس إلى الرباط، بحيث نجدهم لا يجتازون مع محلاتهم نهر أبي رقراق إلا عند مخاضة توجد عند عالية النهر؟

ومن الأدلة التي تثبت، حسب برونو، أن البحر كان مؤلها، الصيغة التي كان يستعملها بعض المغاربة للقسم، كقولهم «فليبتلني البحر إن كنت قد فعلت كذا؛ أو إذا وقع كذا...». كما اعتقد بعضهم أن البحر عند ركوبه لا يحتمل أن يُعبد غيره، أيا كان، وحجتهم على ذلك أنه لو تلا راكب من ركاب السفينة صلاة ما فإن البحر يهيج لا محالة. وهو اعتقاد كان سائدا في العهد الذي لم تكن جذور الإسلام قد ترسخت بعد في سواحل المغرب. ونفس الاعتقاد ساد في الشواطئ الشمالية من حوض المتوسط بالنسبة للمسيحيين، بحيث كان الرهبان والراهبات يمتنعون عن تلاوة صلواتهم عند ركوبهم البحر.

ولقد مكن التنقيب الأثري في ميدان (forum) ليكسوس من العثور على سائرة قرميد (antéfixe)، (حلية معمارية في حافة السطح لإخفاء فجوات القرميد) برونزية ترجع إلى القرن I ق.م. وتوجد حاليا في متحف الرباط الأثري. وتمثل هذه السائرة شخصا وصفه ماريون (J. Marion) كالتالي :

«يمثل هذا الأثر شخصا في عنفوان الشباب، شعره كثيف يحيط بمعظم دائرة وجهه ويتدلى ليختلط بلحية كثة. ولقد مثل الشعر واللحية على شكل خصائل مقصبة تظهر وسطها رؤوس ثلاثة أسماك ومقدم أجسادها (في اللحية)، وكذا دلفينان (على مستوى الأذنين)، وزبانيا قشريات (على الجبين). وشكل الحاجبان وعظما الوجنتين من أجزاء قشور

¹ - BRUNOT (L.), *La mer... op. cit.*, pp. 1- 6.

حيوانات سرطانية، الشيء الذي يضيف على ملامح هذا الشخص مظهره كله خشونة وشراسة. والشفة السفلى غليظة، والفم مفتوح بعض الشيء ويعلوه شارب كث يتدلى على جانبي الفم ويختلط طرفاه باللحية حيث يختفيان في الجزء الذي تبرز فيه سمكتان، على اليمين وعلى الشمال»¹.

ويعتقد شارل بيكار² (Charles - Picard) أن هذا التمثال يمثل إلها بحريا من أصل فينيقي - بوني. ويبدو أن هذه الفرضية تركز على ما ورد في بعض النصوص القديمة، وخاصة نص رحلة حنون الذي تحدث عن هيكل بني فوق رأس صولويس على شرف الإله بوصيدون.

وكان شطلان³ (L. Chatelain) قد وصف بدقة متناهية تمثيل رأس الإله المحيط هذا الذي شملت سيطرته مجال البحار اللاحدود، والذي خلف لنا القدامى عددا كبيرا من صوره، معظمها مثل بواسطة الفسيفساء، وصف شطلان بعضها في فرنسا وتونس والجزائر. واعتبر هذا العالم الأثري اكتشاف هذه الحلية المعمارية التي تمثل الإله المحيط أهم اكتشاف أثري بخصوص الأدوات المعدنية المنقوشة التي عثر عليها في شمال المغرب.

ومعلوم أن الفنانين القدامى غالبا ما مثلوا هذا الإله ملتحيا ورافعا لمذراة ثلاثية وماسكا بسمكة⁴؛ وكانت المذراة الثلاثية هي سلاح صيادي التن القدامى بشكل خاص. كما مثل ذات الإله محمولا على عربة تجرها حيوانات مسوخ، نصفها فرس والنصف الآخر ثعبان، وتحيط بالعربة أسماك ودلافين وكائنات بحرية مختلفة الأشكال، وكذا حوريات بحرية وجان، الخ⁵.

ومما يثبت عبادة الآلهة البحرية الفينيقية - البونية الأصل في المغرب القديم، الفارس البحري الذي عثر عليه طراديل في موضع تمودة⁶. ويتعلق الأمر بقلادة (un médaillon) من الطين المشوي، وقد مثل عليها شخص يمتطي ماردي بحر يركض. ويبدو الفارس مسلحا برمح أو بمذراة ثلاثية ومتأهبا للهجوم. ويقطع هذا الفارس بحرا مليئا بالدلافين، ثلاثة منها تسبح تحت ماردي البحر في اتجاه اليمين. وحسب فنطار⁷ فإن "الموضوع البحري" لهذه القطعة من تأثير فينيقي، ويذكرنا بشكل خاص بمواضيع القطع النقدية الفينيقية. فماردي بحر تمودة يركض شأنه شأن مطية ملقارت كما مثل على نقود صور. وتعود هذه القطعة الأثرية حسب فنطار إلى القرن IV ق.م.

¹ - FANTAR (M.), La religion phénicienne et punique de Lixus , p. 117 ;

ولقد رأينا مجموعة من صور القطع النقدية الفينيقية التي سكّت ما بين 400 و 351 ق.م. وقد مثلت على بعضها آلهة بحرية ملتحية، أو أفراس البحر، بصفتها آلهة بحرية، أو ملقارت ملتحية يمتطي فرسا بحريا... راجع تفاصيل هذه النقود وتعاليق صاحب المؤلف :

BABELON (E.), Catalogue des monnaies grecques de la Bibliothèque Nationale... Chypre et Phénicie, Paris 1893, pp. 123-192.

² - CHARLES-PICARD (G.), Musées et sites archéologiques du Maroc, CRAI, 1946, pp. 668-669.

³ - CHATELAIN (L.), Le Maroc des Romains. Etude sur les centres antiques de la Maurétanie occidentale, Paris 1944, pp. 60-66 ; TARRADELL (M.), Lixus, Tetuàn 1959, p. 72, Lam. 19 ;

وانظر وصف بوب بيكو لقناع الإله المحيط هذا في كتاب :

DE L'EMPIRE ROMAIN AUX VILLES IMPERIALES. 6000 ans d'art au Maroc, Paris 1990, p. 156 ; PONSICH (M.), Une mosaïque du dieu Océan à Lixus, B.A.M., VI, 1966, pp. 323-328.

⁴ - GRANT (M.) et HAZEL (J.), Dictionnaire de la mythologie, p. 299.

⁵ - GRIMAL (P.), Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine, 7è éd. Paris 1982 : Poséidon.

⁶ - TARRADELL (M.), Marruecos púnico, p. 112, fig. 31.

⁷ - FANTAR (M.), Le dieu de la mer chez les Phéniciens et les Puniques, pp. 62-79.

وفي منطقة رأس كانطان، لاحظ مونتاني¹ (R. Montagne) آثار وبقايا بعض العبادات البحرية القديمة متمثلة في أسماء بعض القديسين والقديسات كلالا تساوت (Tessaout) عند سفح رأس كانطان، حيث أشار سكولاكس [وليس ابلين] إلى وجود موضع معبد بوفيدون القديم، وسيدي شيشكال (Chechkal) الذي بنيت قبته فوق صخر يطل على البحر، وسيدي مجموع الصالحين... ولاحظ الباحث الفرنسي أن تقديس الأولياء في منطقة رأس كانطان يفوق تقديس باقي الأولياء في الجهات الأخرى، كما لاحظ أن الأسماك التي تصاد في بداية موسم الصيد خلال فصل الربيع، تهدى إلى هؤلاء الأولياء. وجنوب هذه المنطقة، أشار مونتاني إلى حجرة سيدنا يونس بالقرب من زاوية سيدي واسي (Ouassei) (ناحية ماسة) ؛ ويعتبر مونتاني هذه الحجرة من بين بقايا العبادات البحرية القديمة في المنطقة².

وكان سكولاكس قد ذكر في رحلته أن منطقة رأس صولويس «جد مشهورة وجد مقدسة»، وأشار إلى المعبد الذي أقيم فوق هذا الرأس والذي كان مكرسا لبوفيدون³. وعثر لوكي⁴ (A. Luquet) في أسفل الجرف الواقع على بعد 15 كلم جنوب آسفي (جرف اليهودي) على قدم تمثل يعتقد لوكي أن القدامى كرسوه لبوفيدون، كما دأبوا على ذلك كلما حطت سفنهم في شاطئ جديد، بغية كسب ود الآلهة المحلية.

ولقد شبه الإغريق أحد الآلهة الفينيقية الرئيسية بإلههم بوفيدون، إله البحر والفرس، وكان هذا الإله الفينيقي يحظى بتقديس خاص في قرطاج كما يتجلى ذلك من خلال بعض النصوص القديمة. ففي سنة 480 ق.م. فاجأ خيالة جيلون (Gélon) هاملكار الماغوني (le Magonide Hamilcar) وقتلوه خلال إقامته الذبائح لبوفيدون في هيميرا⁵. وفي سنة 406 ق.م. ضحى البونيون بطفل لكرونوس وبعدد كبير من الحيوانات لبوفيدون، معلنين بذلك بداية حصارهم لأغريغيني⁶ (Agrigente). وبعد مرور حوالي قرنين على ذلك، في سنة 215 ق.م. لما تحالف هانيبال مع فليب V المقدوني وأدى القسم أثناء هذا التحالف، فإنه اختار بوفيدون مع سبعة آلهة أخرى كشاهد على قسمه وضامن للتحالف⁷.

¹ - MONTAGNE (R.), Les marins indigènes de la zone française du Maroc, *Hespéris*, III, 1923, p. 202.

² - نفسه: ص. 196 ؛ وانظر : الحسن بن محمد الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1 ، ص. 114 : "(...) ويوجد في خارج ماسة على شاطئ البحر مسجد يقدسه الناس كثيرا (...) ويقال أيضا أن النبي يونس (عليه السلام) لما التقمه الحوت نذب بالعراء في ساحل ماسة، وجميع العوارض التي تحمل سقف هذا المسجد من عظام سمك البليين، (...) وتحكي العامة انه ما مرت سمكة من هذا النوع بقرب المسجد إلا ماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد (...)".
³ - راجع **رحلة سكولاكس**، 112:

DESANGES (J.), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique* (VI è S. av. J.-C. – IV è S. ap. J.-C.), Paris 1978, pp. 412- 414.

⁴ - LUQUET (A.), Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc : Le Maroc punique, *B.A.M.*, IX, 1973-1975, p. 290.

⁵ - DIODORE, XI, 21 : « Amilcar se trouvait alors dans le camp de l'armée navale, et se disposait à offrir un pompeux sacrifice à Neptune, lorsqu'un détachement de cavaliers amena à Gélon un messenger porteur de lettres de la part des Sélinontins. Il y était écrit que les Sélinontins enverraient à Amilcar la cavalerie qu'il leur avait demandée, et qu'elle arriverait au jour qu'il avait lui-même indiqué : or, ce jour était précisément celui où Amilcar allait offrir le sacrifice... ».

⁶ - DIODORE, XIII, 86 : « Il [Imilcar] offrit ensuite des sacrifices aux dieux selon la coutume de son pays ; c'est-à-dire en immolant un enfant à Saturne et en jetant un grand nombre de victimes dans la mer en l'honneur de Neptune. »

⁷ - POLYBE, VII, 2, 2 : « (2) nous concluons cette alliance en présence de Jupiter, de Junon, d'Apollon, ainsi que du dieu suprême des Carthaginois, d'Hercule, et d'Iolaüs; en présence de Mars, de Triton, de Neptune ; ... ».

وبالرغم من المكانة الرفيعة التي حظي بها هذا الإله في أوساط البونيين ودوامها على مر العصور كما رأينا، فإننا نجهل الكثير عنه فيما يتعلق بالكيفية التي تصوره بها القرطاجيون وفيما يخص اسمه الأصلي بالسامية وكذا أصله الحقيقي. وحسب فيلون البيبلوسي¹ (Philon de Byblos) فإن هذا الإله كان كبير آلهة بيروت² (Berytos). وكان الصيدونيون (Sidoniens) قبل الصوريين (Tyriens) قد عبدوا إلها كان يعتبر كبير آلهة البحر، وهو يشبه إلى حد بعيد إله القرطاجيين هذا (پوصيدون)³. وبانتقاله من صور إلى شمال إفريقيا حيث سعى پوصيدون لتحويل عبادة البونيين لصالحه بسرعة، عمل هذا الإله على خص نفسه بمجموعة من الخصائص التي كان يتميز بها أحد الآلهة المحلية الذي كان يشابهه أكثر من غيره، إلى درجة أن هيرودوت اعتقد أن پوصيدون إلها بوني الأصل⁴. وكان غزير قد دحض قول هيرودوت هذا⁵.

وحسب كركينيو⁶ (J. Carcopino)، ليست هذه هي المرة الأولى التي تتجلى فيها مرونة البونيين في الميدان الديني حيث أظهر هؤلاء في شمال إفريقيا قابلية للتأثر لا يستهان بها. فسواء بالنسبة لإسميهما أو خاصيتهما فإن كبير آلهة مجمع الآلهة القرطاجي تانيت-پيني-بعل (Tanit - Pené - Baal) وبعل حمون قد ألفا -دون شك- بين عناصر تنتمي إلى المعتقدات الليبية وأخرى ترتبط بالديانة الفينيقية.

فليس غريبا أن يكون حنون قد وجد في غرب المغرب ذلك پوصيدون المحلي الذي كان السيرينيون (Cyrénéens) قد أطلقوا هيرودوت على وجوده في شواطئ سيرت (Syrtis)، هذا الإله الذي قد يكون تمكن فيما بعد من فرض عبادته على ليبيا بأسرها والذي حاول حنون، تمشيا مع سياسة قرطاجة التقليدية في هذا الميدان، أن يكسب وده وود عابديه بتكريسه ذلك الهيكل الذي حدثنا عنه في الرحلة.

وسواء كان رسو حنون ونزوله في رأس كنطان من أجل إظهار تقواه جهارا، وإعلان خضوعه لپوصيدون الليبي الذي كان يعبد في هذه الأصقاع منذ العهود الغابرة، وهو خضوع وتقوى من شأنها طمأننة الأهالي وإفراحهم، أو كان نزوله قصد نشر ديانة أجداده البونية وعبادة الإله سيد البحر، فإن هذا العمل ما كان حنون لينجزه لو لم يهين الفينيقيون الميدان من قبله، وهم السابقون إلى هذه الأراضي ومكتشفوها الأوائل. ففي الحالة الأولى سيكون المعمرون الفينيقيون، وهم بنو عم حنون المتكلمون لغته والمتدينون بديانته، هم الذين أطلقوا قائد الرحلة على خاصيات پوصيدون وقدراته وكذا التقوى التي كانت تخصه بها القبائل في هذه الناحية، كما قد يكون هؤلاء المعمرون هم الذين أجروا الاتصالات الأولية الضرورية مع الأهالي قبل قيام حنون بتكريسه الهيكل المذكور. وفي الحالة الثانية سيكون الفينيقيون أيضا، بحكم النفوذ الذي مارسوه على الأهالي، هم الذين ساعدوا حنون خلال تشييده للهيكل وحافظوا على بنائه فيما بعد. ثم إنه

¹ - مؤرخ عاش في القرن الثاني ونشر بالإغريقية كتاب "التاريخ الفينيقي" الذي زعم أنه ترجمة لمؤلف المؤرخ الفينيقي سانكونياتون. ولقد جمع مولر ما تبقى من فقرات هذا الكتاب في الجزء الثالث من مؤلفه :

Fragm. Histor. Græc., Paris, t. III, 1849.

² - PHILON DE BYBLOS, II, 25 ; in : GSELL (St.), H.A.A.N., IV, p. 337.

³ - HESYCHIUS, in : GSELL (St.), H.A.A.N., IV, p. 337.

⁴ - هيرودوت، II ، 50 : "(...) الليبيون هم الذين عرفوا الإغريق ببوصيدون، والليبيون وحدهم أطلقوا اسم پوصيدون وعبدوا هذا الإله دائما (...)".

⁵ - GSELL (St.), Hérodote, Alger 1915, p. 159 ; 188.

⁶ - CARCOPINO (J.), Le Maroc antique, Paris 1943, pp. 92-95.

فيما عدا الفينيقيين، لم يكن الأهالي قادرين على تزويد حنون بما احتاجته هذه العملية من مواد بناء ومهندس ونحاتين زوقوا المعبد حسب المزعوم سكولاكس بصور الآدميين والأسود والدنافيل. وهؤلاء المعمرون الفينيقيون هم الذين قد يكونوا تمكنوا من فرض احترام هيكل پوصيدون الذي أصبح الأهالي يقدسونه ويحجون إليه زرافات لتقدسم الذبائح، وصار موضعه بعد مرور مائة عام مكانا مقدسا ذاع صيته في البلاد.

فتأسيس حنون هيكلا لپوصيدون فوق شناخ صولوييس يعتبر من بين الدلائل التي تشير إلى المساعدة التي أسداها الفينيقيون إلى قائد الرحلة خلال تنفيذ خطته في المغرب ؛ كما يشير تأسيس هذا الهيكل إلى وجود قدم لمواطني حنون في هذه الأصقاع.

ويرى كركينيو¹ أنه إذا كانت آثار معبد بوصيدون قد زالت تماما، فإن بعض آثار الطقوس التي ربما كان الأهالي يقومون بها في ذلك العصر تقربا من الإله الذي طوع الفرس والبحر لم تمنح كليا، كما افترض ذلك مارسي² (Marcy). فلقد أشار هذا الأخير إلى ما كان يقوم به سكان هذه الناحية من بعض الأمازيغ الذين اعتنقوا الإسلام، والذين استمروا في ممارسة بعض العادات الضاربة جذورها في التاريخ، والتي كانت تقضي بقيادة أحجار خيلهم العقائم خلال بعض ليالي السنة إلى رأس كنطان، أملين أن تخصبها فحول كريمة وعجبية تطلع بغتة من أعماق البحر. ويخلص كركينيو إلى القول بأن عمل حنون هذا لا يمكن تصور إنجازه ونجاحه إلا إذا افترضنا أن عملية البناء كانت مسبقة دون أدنى شك بمرحلة تحضير هياكلها المعمرون الفينيقيون في أنحاء صولوييس الظروف المناسبة لضمان نجاح مشروع حنون بخصوص المعبد المكرس لپوصيدون.

فإذا ما محصنا نص الرحلة فهمنا أن الفينيقيين كانوا قد سبقوا حنون إلى اكتشاف ساحل المغرب الأطلسي حيث أسسوا مستعمرات أقدم من تلك التي يحدثنا عنها حنون. وهكذا فإذا تطرق النص لمستعمرات حنون ثلاث مرات، في الفقرات الثانية والخامسة والثامنة، فإنه لا يستعمل نفس الفعل للدلالة على تأسيسها. فبالنسبة لتيمياطيريا في الفقرة الثانية استعمل صاحب النص الماضي *εχτίσμεν* «أسسنا» الذي يعكس فكرة التأسيس انطلاقا من لا شيء ؛ بينما نجده في الفقرتين الخامسة حيث يعد مستعمرات كركون طيكوس (Karikon Teichos) وغوتي (Guttè) وأكرا (Akra) ومليطا (Melitta) وأرمبيس (Arambys) ؛ والثامنة حيث يحدثنا عن كيري يستعمل الماضي *χατψχισμεν* بمعنى «تركنا وراءنا معمرين جدد»، الشيء الذي يعني أن الأمر يتعلق بإنزال معمرين قدموا مباشرة من قرطاجة لتعزيز الجاليات القديمة التي عمرت المستعمرات المذكورة. أما فيما يخص تيمياطيريا (Thymiatèria) التي تطابق المهدية³، على مصب نهر سبو، والتي قدم إليها حنون مباشرة من عمودي هرقل بعد يومين من الإبحار، فإن القائد القرطاجي أسس فوق موضعها مستعمرة جديدة وأنزل فيها معمرين لأول مرة *εχτίσμεν*. وحسب مارسي⁴ (G. Marcy)، فإن حنون أطلق على هذه المستعمرة الاسم الذي كان الأهالي في هذه الأصقاع ينعنون به

¹ - نفسه.

² - MARCY (G.), Notes linguistiques autour du périple d'Hannon, *Hespèris*, XX, 1953, p. 40.

³ - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, p. 95.

⁴ - MARCY (G.), Notes linguistiques autour du périple d'Hannon, p. 35.

الموضع الذي أسست فوقه تيمياطيريا والذي يعني بالليبية منفذ مصب (tumia) الوادي (tarya). وكان الإغريق قد رسموا هذا الاسم بحروف لغتهم، فحصل بالصدفة جناس تام بين الاسمين، وأضحى اسم هذه المستعمرة يعني في اللغة الإغريقية «المباخر»، أي (Thymiatèria). ولقد لاحظ كركينو¹ أن رحلة حنون تذكر تيمياطيريون وليس تيمياطيريا، إلا أن هذا الاسم في صيغته الثانية قد ورد عند المتحلل اسم سكولاكس (الفقرة 112) لتسمية المستعمرة نفسها.

2- أولياء الشواطئ المغربية تحل محل آلهة البحر :

يرى برونو² (L. Brunot) أن آلهة الشاطئ قد اختفت شيئا فشيئا في معتقدات العامة التي عوضتها بقباب الأولياء. واستشهد برونو بما كتبه دوطي (M. Doutté) في مؤلفه "الإسلام الجزائري"³ : «... من المعلوم أن الشعوب لا تغير ديانتها بشكل مفاجئ... ولكنها تعمل على التوفيق بين معتقداتها القديمة وديانتها الجديدة...» ؛ وهذا ما ينطبق، حسب برونو، على أولياء الشواطئ المغربية الذين تسميهم العامة «رجال السواحل»، والذين يُستنجد بهم كلما استدعى الأمر ذلك.

ويمثل الرگراكة نموذج الأولياء الأكثر تقديسا في بلاد الشياظمة، وهم في اعتقاد العامة نسل الأنصار الذين كلفهم الرسول بنشر الإسلام في منطقة الشياظمة، وحماة الصيادين في الساحل الممتد من الجديدة إلى إفني. ولقد لاحظ ريكار⁴ (P. Ricard) أن قباب أضرحتهم ضخمة وأن تقديس العامة لهم في هذه الشواطئ الأطلنطكية، أقدم بكثير من أسطورة رگراكة نفسها.

ويبدو أن تقديس العامة لأوليائها ومدافعهم في بعض المناطق الساحلية الأطلنطكية لا يضاهيه إلا تقديس العابد لمعبوده، وأن هذا الغلو يعكس على الأرجح العلاقة التي كانت تربط سكان المنطقة بالبحر والآلهة التي تجسدها. ولقد أورد عبد القادر مانا في كتابه حول "رگراكة" (بالفرنسية) الحوار الذي دار بينه وبين الجمال :

«- أنوي مصاحبكم [في طوافكم] هذه السنة.

- بارك الله فيك. لقد تعرفت على رجل كان ينوي الحج إلى مكة. ورأى في منامه ولياً يأمره بأن يصاحب رگراكة في طوافهم، فهذا الطواف هو «حج المسكين». وجبل الحديد، حيث يوجد سلطان رگراكة، يضاهي جبل عرفات...».

فزيارة الأولياء السبعة الذين تتخلل قبابهم طواف رگراكة السنوي قبل الحج إلى مكة، تلخص المثل السائر : «إن

¹ - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, p. 95, n. 2.

² - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 13.

³ - DOUTTE (Ed.), *L'islam algérien en l'an 1900*, Alger, 1900, p. 39 : « C'est un fait bien commun que les peuples ne changent pas brusquement de religion ; lorsqu'un réformateur se lève, qui leur apporte un nouveau crédo, ils adaptent seulement de leur mieux leurs anciens cultes à cette nouvelle croyance... ».

⁴ - Maroc, par P. RICARD ; Coll. « Les Guides bleus », Paris, Hachette, 1950, p. 192 ; MANA (A.), *Les Regraga ; La fiancée de l'eau et les gens de la caverne*, Casablanca 1988, p. 84 :

"(...) لذلك تتم زيارة قبة "مولي دورين" مرتين، ذهابا إلى الصويرة ورجوعا منها... وبعد موت هذا الولي نشب خلاف بين القبائل العربية والبربرية حول من يرث ذخائره. ففصل الولي في المنام بين الفريقين بإهداء ذخائره للبربر وجنته للعرب الذين شيدوا له قبة مذهبة بجوار المحيط ؛ فهو ولي البحارة لأنه يجعل البحر كثير السمك (...)" ؛ وراجع : *التشوف إلى رجال التصوف*، تحقيق أحمد التوفيق، الدار البيضاء 1984، ص. 86، الهامش 13 ؛ ص. 127 ؛ 243 ؛ 267 ؛ 350 ؛ 356 ؛ 419.

الرب ينمحي أمام أوليائه»¹.

وكان عالم الاجتماع الألماني ويدر (M. Weber) قد ذكر في أشهر كتاب له صدر بعد موته سنة 1920 "الاقتصاد والمجتمع"، أنه «لما تقوم قوة كهنوتية بالقضاء على عبادة ما، فإن الآلهة القديمة تستمر في الوجود كشياطين...»²؛ أو أولياء !

ولاحظ لاوسط³ (E. Laoust) في بداية العشرينيات من القرن الماضي أن الصيادين في نواحي أكادير - كما هو الشأن في باقي شواطئ المحيط الأطلسي - كانوا يضعون أنفسهم تحت حماية أولياء الشاطئ الذين يمكنهم، حسب اعتقاد الأهالي، من الصيد بوفرة، ويقوّنهم من الأخطار في البحر. وكان صيادو أكادير يتقربون إلى سيدي عبد الله أولحاج الذي تشرف قبته على البحر، ويخصصون جزءا من صيدهم لصيانة ضريح الولي المذكور حيث يذبحون الأضاحي في شهر ماي من كل سنة.

وكان سكان سلا أيضا يقدمون الأضاحي للبحر قصد إرضائه وخاصة عند هيجانه. فلقد ذكر برونو⁴ أنه لما يهيج البحر لمدة طويلة ويجول دون عمل البحارة، فإن هؤلاء يحاولون تهدئته ويشترتون لهذا الغرض تيسا أسودا يقوم "رئيس المرسى" بنحره على شاطئ البحر مرددا عبارة «العار عليكم آ رجال السواحل» ؛ وما يقصد برجال السواحل إلا غفارت البحر حسب برونو. ثم تُرمى الأضحية في البحر، ويستأنف الرئيس عملية التبخير على طول الساحل. ويعتبر دوطي (Doutté⁵) أن الذبيحة ما هي إلا وسيلة يهدف بها المضحي الاتصال بالكائن المقدس، وأن الأهالي يعتقدون في قرارة أنفسهم أن الأضحية تقام لإله مجسد في البحر، وأن هذا الأخير يقبلها ويأكلها. والذبيحة حسب (S. Reinach)، كما ذكر برونو⁶ ذلك، هي مركز كل العبادات والرابطة الأساسية بين الإنسان والإله. ألم يقل هزيبود أن الهدايا والأضاحي ترضي الآلهة والملوك⁷ !

ولقد أمحى تأثير الآلهة القديمة التي خُصّصت بالعبادة في المناطق الساحلية المغربية تدريجيا، وحل محلها الأولياء ومزاراتهم في معتقدات العامة. ويطلق سكان شواطئ الرباط وسلا على هؤلاء الأولياء المدفونين على شاطئ البحر "رجال السواحل"، كما رأينا، ويستغيثون بهم أو يتوسلون إليهم جماعة، فهم الذين يقوّنهم من البحر. وتوجد قباب هؤلاء الأولياء عادة في أماكن مرتفعة، إما فوق جرف كما هو الحال بالنسبة لقبر سيدي أحمد بن عاشر في شاطئ سلا، أو تشرف على وادي أبي رقراق بالنسبة لسيدي مخلوف مثلا... فهم كنزائهم في المناطق الداخلية من البلاد، يشرفون من قبورهم النائفة على المناطق التي يحومها. ولقد كانت هذه الممارسة سائدة في الحضارات القديمة حيث كان البحارة

¹ - MANA (A.), *Les Regraga*, p. 38.

² - WEBER (M.), *Economie et société*, Ed. Plon, p. 449.

³ - LAOUST (E.), *Pêcheurs berbères du Sous*, *Hespéris*, III, 1923, p. 247.

⁴ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 6-15.

⁵ - DOUTTE (Ed.), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, op. cit. p. 453 : « ... Nous venons de définir le sacrifice : c'est le moyen d'entrer en communication avec le divin par l'intermédiaire d'un être vivant qui est détruit au cours de la cérémonie ».

⁶ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 6-15.

⁷ - HESIODE, *Fragment LXXXVIII* : « Les présents persuadent les dieux, les présents persuadent les rois vénérables. (Suidas in *Dôra*). ».

الأولون يتوسلون إلى آلهة البحر وقيمون لها الهياكل فوق أماكن مرتفعة تنيف على البحر، وخاصة في المناطق المعروفة بخطورتها وصعوبة الملاحة فيها. ويرى دوطي في كتابه "الإسلام الجزائري"، أن قباب هؤلاء الأولياء قد بنيت عامة فوق المواضع التي أقام فيها الأقدمون هياكلهم الوثنية¹.

وحسب برونو²، فإن مزارات الأولياء في شاطئ سلا توجد فوق مواضع اعتبرت مقدسة منذ غابر الأزمنة، وإن الشعوب تتعبد دائما في نفس الأماكن. وهؤلاء الأولياء ليسوا ببساطة ولا بقرصنة قدامى، ولا يُقدَّسون إلا لكون قبورهم توجد على الشاطئ. ويجهل الأهالي تاريخهم الحقيقي، كما يجهلون معظم أساطيرهم، لكن ذلك لم يمنعهم من الاستمرار في تقديمهم.

ويروي برونو³ بخصوص سيدي الحاج عبد الله الياهوري أن البحارة لما يمرون بفلكهم في البحر أمام قبره يصيحون: "وسع الله"، شأنهم شأن بحارة العصر القديم الذين كانوا كلما مروا أمام معبد من معابد الآلهة القديمة إلا وصاحوا بأسمائها. ويرى هذا الباحث أن الإسلام صبغ هذه العادة الوثنية بصبغة أخرى، وأن البحار السلاوي لما يصيح صيحته المذكورة يسمي الله ولكنه يقصد في قرارة نفسه الولي الياهوري. كما يتوسل إلى هذا الولي أيضا وبصفة خاصة ليسكن البحر عند هيجانه.

وذكر جولي⁴ (Joly) في بحثه حول "الصناعة في تطوان" دور المزارات الساحلية في توفير الحماية للملاحين كلما توقفوا خلال أسفارهم البحرية، بحيث يعتبر المزار مكانا آمنا لقضاء الليل في شاطئ يتمتع بحماية الولي. وكل شاطئ كان له ولي يحميه.

والواقع أن ظاهرة الاعتقاد في الأولياء "أهل الإغاثة"، والتقرب إلى البحر كمصدر للعجائب والأخطار كانت من الظواهر الراسخة في عقلية المغاربة الجماعية، سواء في المناطق الساحلية أو في داخل البلاد، كفاس مثلا.

ومن أغرب ما قرأت في "الترجمانة الكبرى" لأبي القاسم الزياني، وصفه لرحلته البحرية سنة 1200 هـ من الصويرة إلى اصطنبول، وكيف هاج البحر وأوشك الزياني ومن معه على الهلاك؛ كما وصف لنا موقف "الباشدور" العثماني إسماعيل أفندي العدائي من المغرب وسلطانه، وتهديد الزياني للسفير التركي بذبحه تقربا للبحر !

«...» ولما دخلنا جزر بر الترك استأنس هذا الباشدور، وسرح لسانه بالشتيم في دولة المغرب وأهله وهو يسمعي ذلك، فواعظته المرة بعد المرة ونهيته فلم يرجع عن فعله واستمر على ذلك إلى أن ألجأنا البحر وأهواله إلى مرسى الشيشمة وأشرفنا على المهالك وايسنا من الحياة والمركب مشرف على التلف بكلنا، وهو يسب أمير المؤمنين ويدعو عليه، فقمتم إليه وأخذت بلحيته وقبضه خدامي وهو يصيح، فقلت والله يا ملعون لأتقرب بذبحك قبل الموت، وجاء الرئيس

¹ - DOUTTE (Ed.), *L'islam algérien, op. cit.*, p. 103 : « Les peuples, ..., ont presque toujours prié aux mêmes lieux et cela se vérifie aussi bien dans l'Islam algérien que dans toute autre religion. Les sanctuaires musulmans occupent pour la plupart des places que d'autres sanctuaires avaient occupés avant eux : actuellement ces sanctuaires sont tous en principe des tombes des marabouts, où l'on vient solliciter l'intercession du saint ... ».

² - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 6-15.

³ - *Idem, Ibid.*

⁴ - JOLY (A.), *L'Industrie à Tétouan (suite)* ; L- Métiers et industries de la mer, *Archives Marocaines*, XVIII, 1912, p. 234.

وأعوانه فرغبوني فيه وسرحوه من يدي، وخلصنا من تلك الورطة ودخلنا المرسى وأرسلنا بها (...)»¹.
 وإذا كان الزياتي قد أوشك أن يتقرب للبحر بذبح آدمي ! ويعكس ذلك ما يعكسه من تصور المغربي وموقفه تجاه البحر، فإن بعض المؤلفات المغربية تؤكد ما رأيناه بخصوص تقديس العامة للأولياء أهل الإغاثة. فلقد وردت في هذه الكتب أسماء بعضهم، ووصفت تصرفاتهم وأعمالهم في حالات معينة تطلبت تدخلهم للنصح أو الإنقاذ أو المساعدة.
 فهذا العالم والفقير والأديب اليوسي يروي لنا في الجزء الأول من "المحاضرات" خروجه من فاس «لزيارة صلحاء الساحل» سنة 1079هـ.

«... فلما انتهينا إلى مقام الشيخ أبي سلهم جلسنا على شاطئ البحر :

من نعيم الفردوس نفحة لطف	في عشي كأنما احتلسته
س وعلم أشهى اجتذاب وقطف	قد قطفنا به جنى جنتي أن
بعد هجر من ذي وداد وعطف	وارتضعنا ألد من كأس وصل
مد فكان منه لذلك مطف» ² .	ولقد كان في الحشا جذوة الوج

ومازال موسم مولاي بوسلهم يقام كل سنة في فصل الصيف (يوليوز - غشت)، ويعتبر من أهم المواسم التي يحتفى بها في هذه المنطقة الساحلية بين العرائش والقنيطرة. ويدخل بعض العامة خلال هذا الموسم إلى مغارة (مقدسة) بجوار قبر مولاي بوسلهم يعتقدون أنها تحتضن رفات يوسف ابن أرسطو ؟ وذوي القرنين، ويمصون حليلة عليا تقطر ماء مالها...³

كما وردت في "المحاضرات" أخبار بعض أصحاب الكرامات في الساحل الأطلنطكي، وبالضبط في سلا التي حدثنا اليوسي عن وليها سيدي عبد الله بن حسون وعن بعض كراماته المرتبطة بالملاحة والبحر :
 «وعن صلحاء سلا أن رجلا من رؤساء البحر جاء إلى سيدي علي أبي الشكاوي فشاوره على السفر في البحر فقال له : لا تفعل، وإن فعلت فلا تريح مالك ولا نفسك، وخرج من عنده فأتى سيدي عبد الله بن حسون فشاوره فقال له : سافر تسلم وتغنم. فسافر، فاتفق عند دخولهم البحر أن أسرهم الروم فذهبوا بهم إلى أن لقوا بعض سفن المسلمين فوقع بينهم قتال فظهر المسلمون، فاستمكن هؤلاء من سفينتهم التي أسرتهم فقبضوا عليها وغنموها ورجعوا سالمين غانمين، ومثل هذا من أحوالهم كثير»⁴.

ويذكرنا هذا النص بوحي دلفي (l'oracle de Delphes) حيث كان الإغريق القدامى يأتون لاستشارة عرافته (la Pythie) التي توافق أو تعارض أو تبوح بكلام غير مفهوم لا يمكن تأويله !
 وأعطى القادري في "نشر المثاني" بعض أسماء الصلحاء الذين اعتقد الناس في كراماتهم المرتبطة بالبحر

¹ - الزياتي، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلاي، الرباط 1991، ص ص. 96 - 97.

² - اليوسي، المحاضرات في الأدب واللغة، تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، ج 1، بيروت 1982، ص 214.

³ - SALMON (G.), Quelques légendes relatives à Mouley Bou Salham, Archives Marocaines, IV, n° 2-3, 1905, pp. 412-421 ; MAROC, par J. FAUVEL, coll. « les Guides bleus », Paris 1973, p. 120.

⁴ - اليوسي، المصدر المذكور، ص. 292.

والملاحه، كإبراهيم الصياد القصري الذي كان «... من أهل الإغاثة في البر والبحر، والأحوال العجيبة، والأسرار الغريبة، والجذب القائم، والقلب الهائم...»¹.

«...» ومنهم الولي الجليل أبو محمد سيدي عبد العزيز المدعو عزوز دالله، (...) وكان من أهل الإغاثة والحظوة، وله مكاشفات وكرامات، (...). قال عم والدنا حسبما رأيت بخطه : حدثني بعض الفضلاء من أصحاب الشيخ سيدي محمد بن عبد الله معن أنه ذهب مرة إلى بلاد تطاون بقصد التجارة، فنزل بها دارا مع أناس بها، فلما حضر وقت الأكل قدم إليهم بعض الفاسيين كان هناك مسافرا صحننا من الكسكس، وجعل يتحدث معهم وقال لهم : أقص عليكم خبر هذا الدقيق الذي صنع منه هذا الكسكس، إنه من بلاد العناب. فقالوا له وكيف ذلك : فقال قدمنا من مدينة الجزائر في سفينة في البحر إلى سبتة، فلما أشرفنا عليها هبت علينا ريح صاعقة أزالتنا من مكاننا وردتنا إلى الموضع الذي منه أتينا، وارتج البحر علينا بالأمواج حتى أشرفنا على الغرق... فجعل من في السفينة ينادون بصالحي بلدهم، وجعلت أنا أقول يا سيدي عزوز، أكررها، (...) وكان إذ ذاك حيا. قال : وإذا به قد أتى على الهيئة التي أعرفه عليها (...) حتى وصل إلى السفينة وردها بيده فسكنت إذ ذاك وزال ما بنا، ومررنا ببلاد العناب حيث ألقانا البحر، فاشترينا منه هذا الدقيق الذي صنع منه هذا الكسكس (...)»².

«...» فمنهم البهلول سيدي عنتر الخلطي. ظهرت له كرامات، وتواترت عنه أخبار بمغيبات، ولهج به عامة فاس كثيرا. ومن المحكى عنه أنه ربي [=رئي] يظاً أنا، فقال له بعض الحاضرين : ما هذا يا سيدي ؟ فقال له : إني أصلح السفينة، فلبث قليلا فجاء قوم كانوا ركبو سفينة في البحر فعرض لهم فيها فساد أيقنوا منه بالغرق، فجعلوا يستغيثون بسيدي عنتر لأنهم كانوا يعرفونه، فسهل لهم إصلاحها. وربما ذكر البعض منهم أنه شاهده يصلحها، فنجاهم الله تعالى ببركته، فكان ظاهر فعله خراب، وباطنه صواب»³.

«...» ولما أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحسني الرئيس حسن أن يصنع مركبا فصنع المراكب الكبرى التي ليس في المغرب مثلها، فلما كملت تعذر عليه عومها في البحر، فقصد مولاي إبراهيم [بن عبد السلام الوزاني] هذا وطلب منه أن يطلب الله أن يهون عليه تعويمها، ففاض وجده وأدركته العناية من الله وقال له : اذهب الآن فعومها، فسار حسن فورا وأخذ في تعويمها فسهل الله عليه تعويمها وعامت في البحر في الحين، وصدق الله مقالته (...)»⁴.

وجاء في "تحفة الألباب"، أن شخصا يدعى محمد المعلم كان من أشهر أهل الإغاثة في البحر في بلاد المغرب: «... وفي المغرب الأعلى قريب من القيروان قبر رجل صالح يقال له محمد المعلم، وكان من الزهاد مستجاب الدعوة، وكل من مر على قبره يأخذ من ترابه شيئا، فإذا ركبوا على البحر وهاج البحر وعصفت الرياح وكثر الموج أخرجوا من تراب قبره شيئا وألقوه في البحر ودعوا الله تعالى، سكن البحر وزالت الرياح وسهل [الله] عليهم السفر، وهذا معلوم في أرض المغرب...»⁵.

¹ - القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج1، الرباط 1978، ص. 73.

² - نفسه، ص. 240-241.

³ - القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 2، الدار البيضاء 1982، ص. 303.

⁴ - القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 4، الدار البيضاء 1986، ص. 257.

⁵ - أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، تحقيق :

3- الطقوس المرتبطة بالبحر : العنصرة نموذجاً :

مارس القدامى طقوس الشعوذة المرتبطة بالماء كالرش والاستحمام التي كانت تستهدف تساقط المياه السماوية. ويحدثنا القديس أغوستينوس عن بعض هذه الطقوس التي كانت سائدة في عهده، حيث كان العوام يستحمون في البحر يوم القديس يحيى (Saint-Jean)، أي يوم الانقلاب الصيفي¹. ويعرف هذا اليوم في المغرب باسم "العنصرة"؛ فلقد أشار سلمون (G. Salmon)² إلى حفلة العنصرة في سلا والرباط، ولاحظ موافقة العنصرة لحفلة (la Saint-Jean) في فرنسا. كما أشار الحسن بن محمد الوزان الفاسي ولوطورنو (Le Tourneau) إلى العنصرة في فاس³. وتعتبر العنصرة أو عيد الانقلاب الصيفي من التقاليد الموغلة في القدم في شمال إفريقيا. ولا يعرف أصل هذه الكلمة، غير أن المستشرق دوزي (Dozy) يرجع أصلها إلى العبرية، ومعناها «اجتماع الشعب لإحياء أعياد دينية»⁴. ولقد وردت هذه الكلمة في التلمود حيث أطلقت على عيد الخمسين (Pentecôte). وتطلق العنصرة أيضاً على عيد الخمسين بالنسبة للأقباط، وعيد القديس يحيى (la Saint Jean) في إسبانيا حيث كان يحتفل بها المسلمون والمسيحيون على السواء خلال العصر الوسيط. ولقد استنكرها المؤلفون العرب واعتبروها من الأعياد القديمة المسيحية أو الفارسية. وذكر المقرئ في خطه أن اليهود يحتفلون بها. ويحتفل بهذا العيد في شمال إفريقيا يوم 24 يونيو حسب التقويم اليوليوسي، أي يوم 5 أو 6 يوليوز حسب التقويم الغريغوري⁵.

ولقد لاحظ سفير فرنسا في المغرب دو شيني (De Chénier)⁶ في القرن XVIII احتفال أهل سلا بالعنصرة يوم 5 يوليوز.

ولاحظ بيل (Bel)⁷ أن أهل أزمو وأهل الريف في نواحي تطوان يستحمون في البحر يوم الانقلاب الصيفي خلال احتفالهم بالعنصرة. ووصفها كولا ألبريك (J. Cola Alberich) كالتالي : «ومن بقايا الأفضلية التي تسدى للمياه هذا العيد الذي يسمى "عيد العنصرة" أو "عيد الماء" الذي لا زال

FERRAND (G.), J.A., CCVII, juillet- septembre 1925, pp. 138-139.

¹ - CHARLES-PICARD (G.), *Les religions de l'Afrique antique*, Paris 1954, p. 10.

² - SALMON (G.), *Notes sur Salé*, *Archives Marocaines*, III, 1905, p. 323.

³ - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، *وصف إفريقيا*، ج1، ص. 258: "وفي يوم القديس يوحنا توقد نيران كثيرة من التبن في جميع الأحياء...".
LE TOURNEAU (R.), *Fès avant le Protectorat*. Pub. De l'Institut des Etudes marocaines, t. XLV, Casablanca 1949, p. 614.

⁴ - DOZY, *Supplément aux Dictionnaires arabes*, II, 181 (b) ; MARCAIS (w.), *Textes arabes de Tanger*, Paris 1911, p. 392 :

« استعملت كلمة "العنصرة" في مصر خلال العصر الوسيط (حسب المقرئ)، وفي منطقة وهران في الجزائر، كما استعملت، مع بعض التحريف (العنصرة) في منطقتي الجزائر العاصمة وقسنطينة. ودخلت هذه الكلمة إلى المعجم الإسباني على شكل « alhansra » منذ 1886، في قاموس :

« *Glosario etimologico de las palabras españolas de origen oriental*, Granada 1886.

وراجع نص "العنصرة في جبل الكبير" بلهجة أهالي طنجة في كتاب مارسى المذكور، ص. 40 - 76. وفي *المنجد*: "عيد العنصرة : هو عيد تذكّر حلول الروح القدس على التلاميذ يقع بعد عيد الفصح بخمسين يوماً ؛ وعند اليهود : هو عيد تذكّر نزول الشريعة في طور سيناء. واللفظة عبرانية معناها اجتماع أو محفل".

⁵ - JOLY (A.), *Un calendrier agricole marocain*, *Archives marocaines*, III, 1905, pp. 301-302 ; 311.

⁶ - DE CHENIER, *Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc*, t. III, Paris 1787, p. 225.

⁷ - BEL (A.), *La Ansra : Feux et rites du solstice d'été en Berbérie*, in : *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, Le Caire 1935-1945, pp. 49-72 ;

وبالاصوتي (عيد الوارث)، منظومة في ذم محدثات غمارة، (مخطوط محمد احنا، تطوان).

مرعيا في المغرب رغم إسلاميته. ففي هذا العيد يقصد ألوف الزوار الشواطئ حيث يتجمعون. وأما سكان الجبال فيحملون الشبابات والطبول ويقصدون السواحل على الأقدام أو في الزوارق وهم يعزفون على آلاتهم مقابل سكوت النساء التام»¹.

وهذا ما شاهدته في صباي في شاطئ مرتيل حيث كانت تقام احتفالات كبرى تشارك فيها بعض قبائل جبالة، وتشمل بصفة خاصة مسابقات المراكب (من نوع الشباك) في البحر، وأهازيج... ولقد أشارت بعض "الدلائل السياحية" الفرنسية الشهيرة الصادرة في سلسلة (les Guides bleus) إلى هذه الاحتفالات التي كانت تقام في شاطئ مرتيل في أوائل يوليو، ووصفها ريكار (P. Ricard) كالتالي : «حفلات العنصرة التي تقام فوق الماء خلال موسم هام وغريب جدا في بداية يوليو»².

وكان بوطوكي (J. Potocki) قد تحدث في رحلته إلى المغرب عن العنصرة خلال مقامه في تطوان، وصادف ذلك يوم 5 يوليو، وسماها بالعنصرة أو حفلة الغلال «La Ansa ou fête des moissons...»³.
«... moissons...» فهل يتعلق الأمر باستمرار للحفلة الرومانية التي كانت تسمى *Cerialia*، (حفلة الغلال)، أو *Parilia*، (حفلة قطعان الماشية) ؟ وهي حفلات درسها المؤرخ دوميزيل (G. Dumézil) بدقة في كتابه الشهير: "حفلات الصيف والخريف الرومانية"... كما درس في نفس الكتاب حفلة (les *Neptunalia*) التي كانت تقام يوم 23 يوليو⁴. وكانت هذه الحفلات تقام في العالم الروماني على شرف نبتون (Neptune) إله البحر. وفي التقويمات القديمة، كان يوم 23 يوليو يسمى : *Neptuni ludi et feriae, ou Neptuni ludi* ؛ الشيء الذي يعني أن ألعابا مختلفة كانت تقام خلالها. ويرجح صاحب مقال *Neptunalia*⁵ في قاموس (Larousse) أن هذه الألعاب كانت في الأصل عبارة عن مسابقات قوارب، لأنها كانت حفلة نوتية نهر التيبر بشكل خاص. وكان الشعب يصنع أكواخا من أغصان الأشجار وأوراقها لإقامة مآدبات وللتسلية تحت ظلالها. ولقد خلد الشاعر اللاتيني المجيد هوراس (Horace) هذه الحفلات في أبيات نقلناها إلى العربية كالتالي :

«(...) ما هو أحسن شيء يمكنني أن أفعله، يوم الاحتفاء بنبتون ؟

انتشلي الكيكوب (le *cécube*) من اعتكافه برشاقة يا ليدي (Lyde)،

واهجمي على الحكمة في معاقلها. (...) وبتناوب معك ؛

سأعظم نبتون وخصلات النيريد (les *Nérides*) الخضراء ؛

¹ - كولا ألبريك (خوليو)، دراسة سلاسل شمال إفريقيا، محاضرة أقيمت يوم 31 مارس 1947 في قاعة المحاضرات بناية التربية والثقافة بتطوان، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1948، ص. 39.

² - MAROC par P. RICARD, Coll. « Les Guides bleus », Paris 1950, p. 491 ;

وفي طبعة 1973 ، أشار فوفيل إلى مواسم أخرى تشبه العنصرة، وكانت تقام في الفينديك (موسم سبعة رجال يوم 7 غشت)، والمضيق : يوم 7 يونيو، وتارغه يوم 15 يوليو ؛ راجع :

MAROC , par J. FAUVEL, p. 128 ; 132 ; JOLY (A.), Un calendrier agricole marocain, Archives marocaines, III, 1905, pp. 172-173.

³ - POTOCKI (J.), Voyages en Turquie et en Egypte, en Hollande, au Maroc, Paris 1980, p. 38 - 39.

⁴ - DUMEZIL (G.), Fêtes romaines d'été et d'automne, suivi de Dix questions romaines, Paris 1975, p. 22.

⁵ - GRAND DICTIONNAIRE UNIVERSEL du XIXe S., t. XI, Paris 1865, p. 928.

في حين ستمدحين بكنارتك لاطون (Laton) وسهام السانتية (la Cyntienne) السريعة (...)»¹.

وأفاض القدامى في وصف نبتون (Neptune) الذي نظمت هذه الحفلات على شرفه ؛ وطابق الرومان بينه وبين پوصيدون إله البحر الإغريقي الذي كان يعد بين آلهة الإغريق الاثني عشر (les Olympiens). ومثله الإغريق مسلحا بشوكة ثلاثية، وهو سلاح صيادي التن، وممتطيا عربة تجرها حيوانات مسوخ، نصفها خيول ونصفها الآخر ثعابين. وكانت تحيط بهذه العربة أسماك ودلافين وكائنات بحرية مختلفة الأشكال وجان، الخ².

واعتقد القدامى أن لهذا الإله القدرة على إغراق المسافرين أو إنجادهم في البحر، وعلى تركه البحر رهوا... ونورد فيما يلي ترجمتنا لفقرات من "حوارات الآلهة البحرية" ؛ التي تصورها لوسييان (Lucien de Samosate) والتي تعكس نظرة القدامى لهذا الإله :

« - السيكلوب : (...) هكذا خدعني الآثم [أوليس] بذلك الاسم [لا أحد] ؛ ولكن الذي يؤمني أكثر هو أنه عيّري بأفني قائلا : أبوك نيبتون بنفسه، لن يقدر على إبرائك. - نيبتون : دم ناعم البال يا بني، سأنتقم لك منه، وسيعلم أي إن كنت عاجزا عن إبراء العميان، فإني قادر على إنقاذ من يسافرون في البحر أو هلاكهم (...)»³.

« - پانوپ (Panope) : هل رأيت يا غالين (Galène) ماذا فعلت (la Discorde) في طيساليا بالأمس خلال تناول وجبة الطعام (...) ؟ - غالين : لم أكن من بين المدعوين يا پانوپ، فلقد أمرني نيبتون أن أبقى البحر هادئا وساكنا (...)»⁴.

وحسب هيردوت، فإن الليبيين هم الذين عرّفوا الإغريق بپوصيدون. ففي الأصل كان الليبيون وحدهم يعرفون اسم پوصيدون، الإله الذي خصوه بالعبادة دائما⁵.

وفي العصر الروماني عبد أهالي شمال إفريقيا نيبتون، ليس في المناطق الساحلية فحسب، حيث عبده كإله البحر، بل حتى داخل البلاد، وبصفة خاصة في العيون التي اعتبر نيبتون سيدها⁶.

ولقد عثر في ويلي على تمثال إله نهري تم اكتشافه في الدار المحتوية علي فسيفساء فينوس. كما عثر في نفس المدينة على تمثال يمثل نيبتون، وهو نسخة من تمثال پوصيدون إيسطيموس (Poséidon Isthmios)، وكلاهما

¹ - HORACE, *Odes et Epodes*, III, 28.

² - GRIMAL (P.), *Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine*, 7è éd. Paris 1982 : Neptune et Poséidon.

³ - LUCIEN DE SAMOSATE, *Dialogues des Dieux marins*, Dialogue II.

⁴ - *Idem*, *Dialogues* V ; VI ; VIII.

⁵ - HERODOTE, II, 50 :

"(...) والآلهة التي يقول المصريون أنهم بجهلون أسماءها وصللتا، فيما أعتقد، عن طريق البيلاجيين، باستثناء پوصيدون الذي تعرف عليه الإغريق عن طريق الليبيين. وهم الشعب الوحيد الذي نجد فيه منذ البداية إله يحمل هذا الاسم، فضلا عن أنهم ما زالوا يعبدونه (...)".

⁶ - GSELL (St.), *H.A.A.N.*, VI, p. 152.

موجود في متحف الرباط الأثري¹. وتمثل مجموعة من الحمامات العمومية والأحواض التي عثر عليها في بعض المواضع الأثرية في المغرب عالم البحر، كرسوم للأسماك والتريتون (tritons) (آلهة الموج)، كما هو الشأن بالنسبة لفسيفساء تريتون في بناصا، أو حوريات تمتطي وحوشا بحرية أو تحيط بجسد الإله المحيط... أو صياد رافع لمذراة ثلاثية وسط طحالب وأسماك وطيور بحرية...²

4- مخلوقات البحر العجيبة وظاهرة تقديس الأسماك :

حدثنا عن آلهة البحر وعبادة پوصيدون وتمثل القدامى لنبتون يجرنا إلى تصور المغاربة لمخلوقات البحر العجيبة وتقديسهم لبعض الأسماك. فلقد وردت في كتاب برونو (L. Brunot)³ الأسطورة التي كان يحكيها أهل الرباط عن أخطبوط عملاق كان قد قبض بأحد أرجله على شخص كان جالسا على ظهر سفينة، وغاص به إلى أعماق البحر. وخبر الأخطبوط العملاق هذا ورد في كتاب "التاريخ الطبيعي" لبلينيوس⁴ قبل أن يذكره أيضا أبو حامد الأندلسي الغرناطي في "تحفة الألباب" :

«ولقد رأيت يوما في البحر وأنا على صخرة والماء تحت رجلي قد خرج ذنب حية صفراء منقطة بسواد [طولها] مقدار باع تطلب أن تقبض على رجلي (...) وخرجت من تحت الحجر وإذا بها خمس حيات ورأس واحد [فعجبت من ذلك] فسألت من كان هنالك عن اسم هذه الحية فقالوا هذه تعرف بأمر الحيات وذكروا أنها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله وأنها تقبض على السمك في البحر وتأكله حتى تعظم، تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعا وأنها تقلب المراكب وتأكل من قدرت عليه [من أصحابها] (...)»⁵.

وبالإضافة إلى الأخطبوط العملاق، أورد برونو (L. Brunot)⁶ ما سمعه من سكان منطقة الرباط - سلا عن مخلوق عجيب يسمى القرع بن نمري (l'homme marin)، وهو حيوان أسطوري نصفه آدمي والنصف الآخر نصف السمكة الأسفل ؛ يحكى أنه يخرج إلى شاطئ البحر، وينادي على الناس بأسمائهم، ويطلب منهم الاقتراب منه ؛ وكلما لى نداءه أحد ما إلا وقبض عليه وغاص به إلى قاع البحر...

واستفسرت ذات مرة أحد رؤساء البحر في قرية صغيرة تطل على البحر المتوسط، وتسمى "تامرنوت"، وهي تقع بين شاطئ أزلا وواد لاو، ويعيش أهلها من الفلاحة والصيد، عن هذا الكائن، فأجابني بأن بعض شيوخ القرية رآه في أعالي البحر غير ما مرة، وأن من رآه لا يكذب ! وسمعت من غيره خرافات من هذا القبيل حكته المصادر القديمة في

¹- CHATELAIN (L.), *Le Maroc des Romains*, pp. 270-271 ; *De l'Empire romain*, p. 356 ; 359.

²- CHATELAIN (L.), *Le Maroc des Romains*, pp. 282-283 ; *De l'Empire romain*, p. 39 ; CHARLES-PICARD (G.), *Musées et sites archéologiques du Maroc*, CRAI , 1946, pp. 664-665 :

« تمثل الفسيفساء الشاسعة في غرفة الطعام (triclinium) الكائنة في "دار التماثيل النصفية" موكبا لأفروديت. وتظهر سفينة فينوس (Navigium Veneris) في الوسط، وتقودها كائنات تجسد الحب (les Amours)، وهي تلعب في الأشعة والدوقل (عارضة الصاري)، وكذا الشاريطيات (les Charites) وقد تحولت إلى جدافات. ويرافق السفينة وسط الأمواج موكب رمزي مكون من عرائس البحر (les Néréides) وآلهة الموج (les Tritons)، يوحي بالرحيل إلى الجزر السعيدة (...).»

³- BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 184.

⁴- PLINIE, *H.N.*, IX, 92-93.

⁵- أبو حامد الأندلسي الغرناطي، *تحفة الألباب*، ص. 96 .

⁶- BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 24.

روايات مختلفة¹.

وتذكرنا أسطورة القرع بن نمري بعرائس البحر في الميثولوجيا الإغريقية، تلك العرائس التي كانت تجذب بأنغامها التي لا تقاوم البحارة إلى الحشاف الشاطئية التي تتحطم عليها سفنهم². واعتقد القدامى أن أوليس (Ulysse) وأورفي (Orphée) هما البطلان الوحيدان اللذان نجيا من إغراء عرائس البحر القاتل.

وبعيدا عن بلاد الإغريق وأساطيرهم، أورد القادري في "نشر المثنائي" «حوادث» وقعت في فاس تتعلق بعالم البحر، وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الأحداث التاريخية. وهذه «الحوادث» كثيرة، أذكر من بينها على سبيل المثال: «ومن حوادث هذا العام [1071هـ]، ففي ليلة الأربعاء خامس ربيع الثاني نزل ثلج ونزل معه حوت صغار طولها قدر ثلثي الخنصر من اليد، ولم ينزل المطر بعد أكثر من شهرين، (...)»³.

«وأخبروا أيضا أنهم رأوا في الجو [سنة 1128هـ] مخلوقا عظيما محمولا في الهواء، رأسه رأس ثعبان، وذنبه ذنب سمك، وفي ظهره شيء كالصومعة، ويده كيد الإنسان، وفي إحدى يديه سيف، وعرضه نحو ستين ميلا، وأما طولها فلا يعلم لأنه بقي يجوز نحو ثلاثة أيام (...)»⁴.

فالبحر حاضر في متخيل المغاربة عن طريق هذه الكائنات البحرية الأسطورية التي تحدثت عنها العامة والفقهاء، سواء في المناطق الساحلية أو القارية ؛ وهو حاضر أيضا في حياة بعضهم الروحية من خلال الكهانة وتقديس بعض الأسماك. فلقد أطلعنا پلينيوس على استعمال القدامى في بعض بلاد حوض البحر المتوسط للأسماك المقدسة في عمليات التكهّن وتأويل حركاتها⁵.

وفي المغرب، لاحظ الباحث الفرنسي دوطي (Doutté) في بداية القرن الماضي عرّافات في نواحي الصويرة تتكهّن بالمستقبل بمحار المريق (murex) ؛ وهي ظاهرة لاحظها أيضا البرتغالي Diego de Torrès سنة 1553، وهو ما قد يعني أن الأجيال توارثتها في هذه المنطقة الساحلية منذ العصور القديمة. وزعمت النساء الأمازيغيات أنهن تكلمن المحار الذي تربينه في العلب⁶!

ولقد لاحظ لاوسط (Laoust)⁷ في الرباط وسلا بشكل خاص، انتشار المحار بكثرة في المقابر التي تحد في معظمها بالبحر، حيث تغطي القبور الحديثة العهد بكسار المحار. واستفسر الباحث الفرنسي الأهالي حول هذا العرف،

¹ - راجع: الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 112-113: «وذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر وتزيد البحريين فقال: البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب زوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلما إلى ادعاء المحال.

وقال بعض العرب: «حدث عن البحر ولا حرج، (...)»؛ وانظر في هذا الموضوع أيضا: ج 3، ص 515؛ و ج 6، ص 19. وعن "حمق وغباوة وظلم السماكين"، راجع الحيوان، ج 2، ص 105.

² - GRANT (M.) et HAZEL (J.), *Dictionnaire de la mythologie*, p. 327-328.

وعن مخلوقات البحر العجيبة في البحر المتوسط والبحار البعيدة في مؤلفات العصر الجمهوري والعصر الإمبراطوري الروماني، راجع: SAINT DENIS (E. de), *Le rôle de la mer dans la poésie latine*, Lyon 1935, pp. 411- 413.

³ - القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 2، ص 119؛ وانظر: الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 527: «(...) ولذلك طمع بعض الكذابين ممن نكره اسمه، فذكر أن أهل أيدج مطروا [مرة] أكبر شببيط في الأرض، وأسمنها [وأعذبها] وأعظمها، [وأنهم اشتروا، وملحوا، وقرسوا، وتزود منها مسافره]. (...)».

⁴ - القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 3، ص 233.

⁵ - PLINE, H.N., XXXII, 17 (8).

⁶ - MANA (A.), *Les Reagra*, p. 107.

⁷ - LAOUST (E.), *Pêcheurs berbères du Sous*, p. 240.

وتضاربت أجوبتهم في محاولة تفسيره. فمنهم من تحدث عن البركة، ومنهم من زعم أن القصد من ذلك هو تحميل القبر أو محاربة النباتات التي تغطيه مع مرور الزمن...

ويعتقد لاوسط أن هناك علاقة بين هذا العرف وما دأب عليه بعض سكان قرطاجة من وضع الحمار في قبور ذويهم، مع باقي الأثاث المأتمى. وأشار پونسيك (M. Ponsich)¹ إلى استعمال القدامى لبعض أنواع الحمار قصد التزيين، بعضها عثر عليه في مجموعة من القبور الفينيقية في طنجة ونواحيها. وعثر باسي (H. Basset)، حسب لاووسط (E. Laoust)²، أيضا في مقبرة شالة القديمة على الحمار. فهل كانت لهذا الحمار قيمة سحرية كبعض أنواع السمك، كما اعتقد الرومان ذلك؟ وهو ربما اعتقاد فينيقي الأصل. فلقد مارس القدامى عبادة السمك، ومازالت آثار طقوس هذه العبادة منتشرة في تونس حيث يعتبر العوام السمكة واقية من العين الشريرة³.

وكانت ظاهرة الأسماك المقدسة منتشرة في أوساط القدامى وحدثتنا عنها بعض المصادر القديمة. فلقد وصف الشاعر مارسيال (Martial)⁴ في إحدى إيجراماته (épigramme) الأسماك المقدسة التي تسبح في مياه بي (Baies) وتعرف سيدها وتلامس يده ملامسة لطيفة...

وحسب پلينيوس، توجد في عدة فيلات امبراطورية أسماك تطعم باليد؛ «... ولقد تحدث عن ذلك القدامى لأنهم شاهدوه بإعجاب في البرك الطبيعية وليس في المسمكات (les viviers) : في حصن Elore⁵ في صقلية، غير غير بعيد عن Syracuse؛ وكذلك في عين Jupiter Labraynde⁶ بالنسبة لأسماك أنقليس المزينة بالحلقات؛ وكذلك الشأن بالنسبة لأسماك Chios بالقرب من هيكل الشيوخ (temple des Vieillards)؛ وفي بلاد الرافدين (ميزوپوطاميا) بالنسبة لأسماك عين Chabura⁷».

وأورد برونو (L. Brunot)⁸ خبر سمكة أنقليس ضخمة كانت تعيش في عين شالة حوالي 1911-1912، 1912، يبلغ طولها باعا ونصف باع⁹، وكان غطاء خياشيمها مزينا بحلقتين. وكان الناس يطعمونها فتات الخبز وقطعا

¹ - PONSICH (M.), *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, Paris 1970, pp. 144-147.

² - LAOUST (E.), *Pêcheurs berbères du Sous*, p. 240.

³ - CHARLES-PICARD (G.), *Les religions de l'Afrique antique*, p. 12.

⁴ - MARTIAL, *Ep.*, IV, 30 : « [4,30] XXX. - UN PÊCHEUR. Crois-moi, pêcheur, fuis bien loin du lac de Baïes, si tu ne veux pas en revenir criminel. Le poisson qui nage dans ces eaux est sacré ; il connaît le maître du monde, et vient lécher cette main, la plus puissante de l'univers. Ajouterai-je que chacun de ces poissons à son nom, et qu'il accourt rapidement à la voix du maître qui l'appelle ? Un Libyen impie jeta un jour dans cette eau profonde sa ligne tremblante, mais, au moment de tirer sa proie, frappé tout à coup de cécité, il perdit l'usage de ses yeux et ne put voir le poisson qu'il avait pris : aujourd'hui, maudissant ses hameçons sacrilèges, il se tient en mendiant sur le rivage de Baïes. Toi, pêcheur, tandis que tu le peux encore, retire-toi innocent ; jette dans ces eaux des aliments salutaires, et respecte des poissons consacrés. »

⁵ - شمال شناخ Pachynum جنوب شرق صقلية.

⁶ - كان يوجد في لابراندا (Labranda)، في كاربيا الواقعة في آسيا الصغرى معبدا مكرسا لزيوس ستراتيوس :

CHARLES-PICARD (G.), *Le sanctuaire de Labraunda*, *Rev. Arch.*, oct.- déc. 1964, p. 169 sq.

⁷ - PLINE, *H.N.*, XXXII, 16 (7).

⁸ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 182 ; BOUBE (J.), *Les nécropoles de Sala*, p. 16 :

تم تقديس عين شالة، حسب بوب، منذ عدة قرون خلت.

⁹ - « brasse » قياس بحري يختلف طوله باختلاف البلدان، ولكنه يتراوح بين متر ونصف ومترين.

من اللحم، ولم يصطدها أحد قط إلى أن اختفت في يوم ما.

وما زالت أسماك الأنقليس تعيش في العين المذكورة في شالة إلى يومنا هذا ؛ وقد عوض البيض المسلوق والقطع النقدية التي يرميها الزوار في الصهريج فتات الخبز وقطع اللحم التي تحدث عنها برونو. وجلي أن أسماك الأنقليس التي شاهدها في آخر زيارة لي لهذا الموضوع الأثري سنة 2014، لم تعد مزينة بالحلقات ! ومعلوم أن شالة حسب اليوسي، من المواضع التي اشتهرت في بلاد المغرب «بمآثر الصالحين ووقع التغالي فيها، منها شالة في رباط سلا، فلا يعرف بها إلا أنها مزاراة يزورها الناس ويتبركون بها، ولم يظهر من التبرك بالصالحين فيها لهذا العهد إلا يحيى بن يونس، وهو معروف بها، ولا تعرف له ترجمة...¹».

وشاهدت في تطاون أسماك أنقليس ضخمة في مزار مشهور في أوساط العامة يسمى "العوينة"، يحظى بتقديس الزوار الذين تطوّرهم "مقدمة" تشرف على تنظيم طقوس عملية الزيارة من إيقاد الشموع وإطعام الانقليس والشرب من ماء العين التي يعيش فيها السمك "المقدس"... وإطعام القطط التي تجسد الجن خارج العين، بطواجن سمك تطهى خصيصا للمناسبة ! والموضع المذكور يوجد أمام قبة سيدي علي التبين، المجاهد الأندلسي المعروف². وأشار القزويني خلال حديثه عن سبتة في "كتاب آثار البلاد" إلى «الصخرة التي وصل إليها موسى وفتاه يوشع فنسيا الحوت المشوي وكانا قد أكلا نصفه فأحى الله تعالى النصف الآخر فاتخذ سبيله في البحر عجبا، وله نسل إلى الآن في ذلك الموضع، (...) والناس يتبركون بها ويهدونها إلى المحتشمين، واليهود يقددونها ويحملونها إلى البلاد البعيدة للهدايا»³.

ولم تقتصر ظاهرة تقديس الأسماك على المناطق الساحلية (شالة وتطاون)، وهي مناطق عرفت تأثيرات فينيقية ورومانية فيما بعد، كما هو الشأن في باقي بلدان حوض البحر المتوسط، بل نجد هذه الظاهرة منتشرة في داخل البلاد. فلقد أشار برونو (L. Brunot)⁴ إلى وجود أسماك مقدسة في سيدي فريج بفاس وفي حوض تيساوت. ولا يُعرف هل هذه الظاهرة دخيلة على المغرب أم لا ؟

وتزين بعض الأواني النحاسية بنقوش تمثل أسماكها، وهي تعتبر فأل خير في اعتقاد العامة. وقد يدل ذلك على بقايا طقوس تقديس السمك قديما.

ووردت في بعض المصادر العربية أخبار تتعلق بالأنقليس وتقديسه في أماكن أخرى شرق المتوسط، كما هو الشأن بالنسبة لمشهد النبي دانيال (la chapelle de Daniel) المقدس وأسمائه الأنقليس التابو (tabous) :

«(...) وفيها [سوس بخراسان] سمكة كبيرة كالغنمة الكبيرة في أذنّها حلقة ذهب، فسألت عنها لم جعلوا في

¹ - القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 3 ، ص. 63 .

² - VALDERRAMA (F.), El culto a las fuentes en Tetuan, I C.A.M.E., Tetuan 1954, pp. 491-500 ;

وجعفر ابن الحاج السلمي، "أسطورة تطوان أو تطوان الأسطورة"، تطوان خلال القرنين 16 و 17 ؛ أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و 17 : 9- 11- مارس 1995، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تطوان 1996 ، ص ص 165 - 176 .

³ - Journal Asiatique, oct.-déc. 1925, pp. 325-326.

وانظر البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص. 783 : "(...) ويذكر أن بهذا الموضع [ماء الحياة] نسي فتى موسى الحوت، ويوجد في ذلك الموضع خاصة دون غيره حوت ينسب إلى موسى، عرضه مقدار ثلثي شير وطوله أكثر من شير، (...)".

⁴ - BRUNOT (L.), La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, p. 176 ; Archives Marocaines, VI, p. 367.

أذنها حلقة ذهب... وذلك السمك لا يفر من الناس وقد أنس بهم يزورون مشهد دانيال من جميع المواضع، وعلى ذلك المشهد أوقاف كثيرة وخادم يخدم الزائرين والغرباء المجاورين (...).¹

وحسب المسعودي، كانت تعيش في قصر الأمين سمكة مقرطة بلحقي ذهب كان الخليفة العباسي يجد بها وجدا شديدا إلى أن ضاعت منه...

«وذكر ابراهيم ابن المهدي قال: استأذنت على الأمين يوما وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه ؛ فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه إلى أن كابت ودخلت ؛ فإذا هو قد تطلع إلى دجلة بالشباك ؛ وكان في وسط القصر بركة عظيمة لها مخترق للماء إلى دجلة، وفي المخترق شباك حديد ؛ فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا إلى تفتيش الماء في البركة، وهو كالواله ؛ فقال لي وقد نثيت بالسلام عليه وكررت : «لا تدري يا عم، فمقرطتي قد ذهبت من البركة إلى دجلة» ؛ والمقرطة سمكة كانت قد اصطيدت له وهي صغيرة، فقرطها بلحقي ذهب فيهما حبنا در وقيل : ياقوت ؛ قال : فخرجت وأنا آيس من فلاحه وقلت لو ارتدع عن الرعونة من وقت لكان هذا الوقت»².

وإذا كاد الأمين أن يفقد صوابه بسبب ضياع مقرطته، فإن أخاه المأمون فقد حياته فجأة بسبب سمكة أورد خبرها المسعودي مفصلا في الجزء الرابع من "مروج الذهب" :

«(...) فرحل [المأمون] فلم ينش عن غزاته حتى فتح أربعة عشر حصنا، وانصرف من غزاته فنزل على عين البدندون المعروفة بالعشيرة (...) وجلس تحت الكنيسة التي عقدت له والماء تحته (...) فينما هو كذلك إذا لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة، فجعل لمن يخرجها سبقا، فبدر بعض الفراشين فنزل وأخذها وصعد ؛ فلما صار على حرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضطربت وانملست من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجر فنضحت من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ؛ ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب ؛ فقال المأمون: «تقل الساعة».

ثم أخذته الرعدة من ساعته ولم يقدر يتحرك من مكانه فغطي باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح: «البرد البرد !»، ثم حول إلى المضرب ودثر وأوقدت النيران حوله وهو يصيح «البرد البرد !» ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها، فلم يقدر على الذواق منها، وقد شغله ما هو فيه عن تناول شيء منها ؛ ولما اشتد الأمر بالمأمون سأل المعتصم بخثيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت...³.

ويوحى هذا الموت الخاطف أن سمكة عين البدندون كانت مقدسة أو لها قيمة سحرية جهل الخليفة وبال أمرها

؟!

¹ - أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب، ص. 138 . و

Daniel, in : l'ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM.

² - المسعودي، مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، الجزء 4، ص. 268.

³ - نفسه، ص. 340 - 342 .

5- تخصيص الخيول الأسطورية للحجور :

وإذا كانت بعض الأسماك قد قُدمت في الماضي في مناطق من المغرب وحوض البحر المتوسط، كما هو الشأن بالنسبة لبعض ثمار البحر التي استعملت في ميدان الكهانة والمعتقدات أو العلاج : الودع (ج وَدْعَة وَوَدْعَة) مثلا ؛ فإن بعض سكان المناطق الساحلية الأطلنطكية المغربية عرفوا في الماضي، شأنهم شأن الإغريق القدماء، أسطورة الحجور التي تخصبها خيول أسطورية. وإلى عهد قريب نسبيا كان بعضهم يربط أفراسه طول الليل في مواضع معلومة من الشاطئ الأطلنطي معتقدا أن فحولا تخرج من المحيط لتنزو عليها.

وزعم أهالي الرباط ونواحيها أن هناك خيولا بحرية تخرج من البحر ليلا لتسند الحجور، وأحدها له رأسان، وأن الأمهار التي تولد بعد ذلك تكون من أجمل الجياد وأجودها، وتعرف بـ«خيل الريح». ويروي سكان شواطئ دكالة أسطورة أوردها دوطي (E. Douette) في كتابه "مراكش"¹، مفادها أن جوادا بحريا (العود البحري) يخرج من البحر ليلة واحدة في السنة ليسند حجور قبيلة البخاتي، وهو ما يفسر حسب هؤلاء وجود أفراس عتاق في قبيلتهم لا نظير لها. ويسمى القزويني هذه الأمهار في عجائب المخلوقات «أفراس الماء». يقول القزويني :

«فرس الماء : قالوا إنه كفرس البر إلا أنه أكبر عرفا وذنبا وأحسن لونا وحافره مشقوق كحافر بقر الوحش وجثته دون فرس البر وفوق الحمار بقليل، وربما يخرج هذا الفرس من الماء وينزو على فرس البر فيتولد منهما ولد في غاية الحسن. وحكي أن الشيخ أبا القاسم ويعرف بكركان رحمه الله وهو من مشايخ خراسان نزل على ماء وكان معه حجرة، فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض كالدرهم ونزا على الحجرة فولدت مهرا شبيها بالذكر عجيب الصورة، فلما كان ذلك الوقت عاد إلى ذلك المكان والحجرة والمهر معه طمعا في مهر آخر، فخرج الفحل وشم مهره ثم وثب في الماء ووثب المهر بعده فكان الشيخ يعاود ذلك الموضع مع الحجرة فسمي أبا القاسم كركان»². وفي كتاب "تاريخ الحيوانات" روى أرسطو³ أن الحجور تعد من بين ذوات الحوافر التي تدق (ودق أي طلب الفحل) أكثر من غيرها وقت السفاد، وأنها على أية حال مثال الأنثى المسعورة ؛ ولذلك يطلق هذا النعت المهين - الحجر - على المرأة الشبهة.

¹ - DOUTTE (E.), Marrakech, Paris 1905, p. 237 : « Il existe une fraction des Abda, les Bkhâti qui est enclavée dans les Doukkâla, ... Ils ont des bêtes magnifiques, surtout certains chevaux noirs. Une légende très enracinée veut que tous les ans, une nuit, « le cheval marin », ... sorte de la mer et vienne saillir les juments des Bkhâti. Ainsi explique-t-on la beauté des produits qui errent dans les pâturages de cette tribu... ».

² - القزويني، عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات، قدم له وحققه فاروق سعد، بيروت 1973، ص 192 - 193 .

³ - ARISTOTE, Histoire des Animaux, VI, 17, 6 ; Texte établi et traduit par P. Louis, Paris 1968 : « Parmi les femelles, ce sont les juments, avant toutes les autres, et après elles, les vaches, qui se montrent les plus ardentes à l'accouplement. Les femelles des chevaux en deviennent folles, ou comme on dit, hippomanes ; de là vient que, quand on veut flétrir les gens beaucoup trop livrés aux plaisirs de l'amour, on leur inflige ce surnom d'hippo-mânes, qu'on tire uniquement de la jument, parmi toutes les autres femelles. »

والجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 55. : « قال [صاحب المنطق] : وزعم بعض الناس أن إناث الخيل تمتلئ ربحا في زمان هيجهما، فلا يباعدون الذكورة عنها. وإذا اعتراها ذلك ركضت ركضا شديدا، ثم لا تأخذ غربا ولا شرقا، بل تأخذ في الشمال والجنوب » ؛ والقزويني (علي بن عمر بن علي الكاتبي)، جوامع اللذة، الماية (ليبيا)، 2002، ص 222، حيث ورد كلام شبيه بما رواه الجاحظ.

ويروى كذلك، حسب أرسطو¹، أن الحجور تخصب بالريح وقت السفاد، وأنها حين تدق تعدو وتبتعد عن باقي الخيل إما نحو الشمال أو الجنوب، ولا تترك أيا كان يقترب منها حتى تنهك أو تبلغ البحر، فيسيل آنذاك من عضوها التناسلي سائل يشبه المني، ولكنه أفتح منه لونا...

ولقد وردت في عدة مصادر إغريقية ولاتينية نصوص تثبت اعتقاد القدماء في أن الحجور يمكن أن تخصب بواسطة الريح. ويحكي هوميروس في الإلياذة كيف علق بوري (Borée) بحب حجور إريكطونيوس (Erichthonios) :

«(...) كانت ثلاثة آلاف حجرا في ملك إريكطونيوس (Erichthonios) ترعى في مروج ندية، وهي تتباهى بمهراتها الوثابة. وأثناء رعيها علق بها بوري (Borée) الذي اتخذ شكل حصان ذي عرف شديد الزرقة، وسافد بعضها، فولدت اثنتا عشرة مهرة. ولما كانت هذه المهرات تركض في حقول القمح، كانت تقفز على أطراف سفا السنابل دون ثنيها... ولما كانت تقفز على سطح البحر الشاسع، كانت تعدو على قمم أمواجه المصطخبة (...)»².

وكان لبوري (Borée) إله ربح الشمال العنيفة علاقة وطيدة بالخيول، وكان يمثل على شكلها. وفي رواية أخرى، نزا بوري على إحدى حجور الملك داناووس (Danaos) التي ولدت له اثنا عشر مهرا³.

وفي النشيد السادس عشر، نسب هوميروس خيول البطل الإغريقي آخيل (Achille) إلى زفير (Zéphyr)، إله ربح الغرب، وهي ربح لطيفة يرحب بها كلما هبت عكس ربح الشمال (Borée) التي تجسد العنف :

«(...) أتاه أوطوميديون (Automédon) بفرسين سريعين ذلولين : غزانطوس (Xanthos) وباليوس (Balios) اللذين كانا يطيران كالرياح، وقد ولدتهما هاربي بودارجي (la Harpye Podargé) التي نزا عليها زيفير (Zéphyre) العنيف بينما كانت ترعى في مرج على ضفاف مجرى الأوقيانوس (...)»⁴.

وفي رواية أخرى ذكر غزانطوس وباليوس كحصانين خالدين للإله أبولون (Apollon)⁵.

وخلف لنا أكبر شعراء روما على الإطلاق، فيرجيل (Virgile) في ديوانه (Les Géorgiques) وصفا شاعريا في منتهى الروعة لهذه الظاهرة التي كان هوميروس سباقا لوصفها. لقد أنشد فرجيل قائلا :

«(...) ولكن هياج الحجور شيء فريد، وكانت فينوس بنفسها قد زرعت فيها هذه الجنون، في العهد الذي

¹ - ARISTOTE, *Histoire des Animaux*, VI, 17, 7 : « On dit aussi qu'à ces époques, elles sont affolées par le vent. C'est ce qui fait que dans l'île de Crète, on n'empêche en rien la saillie des cavales. Une fois couvertes, elles se mettent à fuir loin des autres chevaux ; leur mal est celui que, pour les femelles des sangliers, on appelle avoir la fureur du sanglier. D'ailleurs, elles ne courent jamais ni vers l'est, ni vers l'ouest ; mais toujours au nord ou au sud. Quand elles sont atteintes de cette furie, elles ne souffrent pas que personne s'approche d'elles, jusqu'à ce qu'elles tombent épuisées de fatigue, ou qu'elles se plongent dans la mer. 8 Elles laissent alors couler un corps pareil à celui qu'on appelle aussi du nom d'hippomane dans le poulain qui vient de naître. Ce corps ressemble à l'ovaire de la truie ; et c'est une substance très recherchée pour la fabrication des remèdes. Aux époques de l'accouplement, les juments se penchent les unes sur les autres plus qu'elles ne le font d'ordinaire ; elles agitent à tout instant leur queue ; et la voix qu'elles ont alors est très différente de celle qu'elles ont à tout autre moment. Alors aussi, il s'écoule de leurs parties génitales un liquide qui se rapproche de la semence des mâles, mais qui est beaucoup plus léger. »

² - HOMERE, *L'Iliade*, XX, 223.

³ - GRANT (M.) et HAZEL (J.), *Dictionnaire de la mythologie*, pp. 69-70.

⁴ - HOMERE, *L'Iliade*, XVI, 150 ; MANILIUS, *Astronomiques*, IV, 584-595.

⁵ - GRANT (M.) et HAZEL (J.), *Dictionnaire de la mythologie*, p. 378.

مزقت فيه فكوك الهوطنياد (les Potniades) أعضاء غلوكوس (Glaucus). هذا الحجور يدفعها حبها الجنوبي فيما وراء الغارغار (Gargare)، وفيما وراء الأسكاني (l'Ascagne) المصوت، وتقطع الجبال والأنهار ؛ وبمجرد ما تودق، تصعد إلى قمم الصخور وفمها موجه نحو زيفير (Zéphyr)، وتتشرب نسامه الرقيقة، وغالبا ما يتم إخصابها دون سفاد، بواسطة الريح ؛ فيا للعجب ! (...)»¹.

وروى فارون (Varron) في مؤلفه "الاقتصاد الريفي" في القرن I ق.م. تخصيب الريح للحجور على شواطئ البرتغال الأطلنطكية، في المنطقة التي تقع فيها مدينة أوليسيبو (Olisipo)، وهو الاسم القديم لمدينة لشبونة : «وبخصوص التسافد، يقع في إسبانيا شيء غريب ولكنه حقيقي : ففي لوزيطانيا، بالقرب من الأوقيانوس، (...) توجد فوق جبل طاغروس (Tagrus) حجور يتم إخصابها في بعض الأحيان بواسطة الريح، (...) لكن المهور التي تلدها هذه الحجور لا تعيش أكثر من ثلاث سنوات»².

وفي مؤلفه الضخم، *De Re rustica*، أورد العالم الزراعي الروماني كولوميل (Columelle)³ في القرن I م نفس الأسطورة مستشهدا بأبيات فرجيل الذي كان محل إعجابه.

ولاحظ (S. Reinach)⁴ أن أسطورة الجياد العتاق التي تنسب إلى الريحين زفير (Zéphyre) وبوري (Borée) استمرت في أوروبا إلى غاية القرون الوسطى، بل إلى ما بعد العصر الوسيط، ورجح أن يكون الإغريق قد تصوروا الرياح على شكل خيل، كما هو الأمر بالنسبة للميثولوجيا الجرمانية.

واعتقد بعض العرب، حسب الجاحظ، أن للرياح خصائص، فالشمال « ييبس ويقصف، والجنوب يرطب ويلدن»⁵ ؛ «... وأكثر ما يكون فساد البيض في الجناث، ولذلك كان ابن الجهم لا يطلب من نسائه الولد إلا والريح شمال»⁶.

« وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده أن الريح⁷ تنقسم إلى قسمين : رحمة وعذاب ؛ وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام. ولكل قسم اسم. فأسماء أقسام قسم الرحمة : المبشّرات، والنشّرات، والمرسلات، والرّخاء. وأسماء أقسام قسم

¹ - VIRGILE, *Les Géorgiques*, III, 274.

² - VARRON, *Economie rurale*, II, 1, 19.

³ - COLUMELLE, *De Re rustica*, VI, 27.

⁴ - REINACH (S.), *Cultes, Mythes et Religions*, t. V, Paris 1923, p. 42.

⁵ - الجاحظ، *الحيوان*، ج 4، ص 407: "وأشدني يحيى الأغر: كضرب القيون سبيك الحديد... يوم الجناث ضربا وكيدا فلم أعرفه ؛ فسألت بعض الصياقلة فقال : نعم، هذا بين معروف. إذا أخرجنا الحديد من الكير في يوم شمال، واحتاجت في القطع إلى مائة ضربة، احتاجت في قطعها يوم الجنوب إلى أكثر من ذلك، وإلى أشد من ذلك الضرب..."

⁶ - الجاحظ، *الحيوان*، ج 3، ص 172 - 173 ؛ ولقد سبقه الإغريقي إبقراط إلى هذا الكلام حيث قال : «إن الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّدته، وسخنّت البحار والأنهار. فكل شيء في رطوبة تغير لونه وحالاته. وهي ترخي الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثقلا في الأسماك، وغشاوة في الأبصار. وأما الشمال فإنها تصلب الأبدان، وتصحح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفي الحواس، وتقوي الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر» ؛ انظر : النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، السفر الأول، القاهرة، بدون تاريخ، ص 96.

⁷ - «وهي مؤنثة، يقال هبت الريح تهب هبوبا، وتجمع على رياح، وقد دل الاستقراء على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب، كانت بلفظ الإفراد، وحيث وردت في معرض الرحمة كانت بلفظ الجمع. قال تعالى في جانب العذاب : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات، الآية 41] ؛ وقال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر، الآية 19]. وفي جانب الرحمة : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان، الآية 48] ؛ وقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم، الآية 48]، إلى غير ذلك من الآيات ؛ انظر : *صبح الأعشى للقلقشندي*، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، ج 2، ط 1، بيروت 1987، ص ص. 184-185 ؛ وكتاب *فقه اللغة للتلعلي*، بيروت، 1885، ص ص. 277-279 ؛ 354-355.

العذاب : العاصف، والقاصف (وهما في البحر)، والعقيم، والصرصر (وهما في البر) ...»¹.
والرياح، حسب ابن قتيبة²، «أربع "الشمال"³ (...)، وهي إذا كانت في الصيف حارة "بارخ" وجمعها بوارح ؛ و"الجنوب" تقابلها ؛ و"الصبا"⁴ تأتي من مطلع الشمس، وهي "القبول" و"الدبور"⁵ تقابلها. وكل ربح جاءت بين مهبي مهبي ريحين فهي "نكباء"، سميت بذلك لأنها نكبت، أي : عدلت عن مهاب هذه الأربع». وعرف المبرد⁶ النكباء، بـ «الريح التي تأتي من بين ريحين فتكون بين الشمال والصَّبا، أو الشمال والدبور، أو الجنوب والدبور، أو الجنوب والصَّبا ؛ فإذا كانت النكباء تناوح الشمال فهي آية الشتاء. ومعنى "تناوح" : تقابل (...)».

6- البحر كمجال مقدس عند الإغريق القدامى وبعض المغاربة :

رأينا سابقا أن مجموعة من الظواهر المرتبطة بالبحر في بلاد الإغريق كان لها صدى في المغرب بشكل أو بآخر في ميدان الأسطورة ؛ ويمكن إبداء نفس الملاحظة في ميدان السلوك الجماعي الذي ميز تصرفات بعض سكان المغرب تجاه البحر، حيث نرى أيضا صدى لبعض نصائح هيزيود أو أخبار بلينيوس.

لقد نهي أقدم شعراء الإغريق هيزيود في ديوانه "الأعمال والأيام" عن التبول في مجاري الأنهار، لا شيء إلا لأنها تصب في البحار⁷. وروى هيرودوت في استقصائه كيف كان الفرس يمتنعون عن التبول والبصق في الأنهار، بل ولا ينظفون فيها أيديهم، ويمنعون الناس عن فعل ذلك :

«لا يتبولون [الفرس] في النهر ولا ييصقون فيه، كما لا يغسلون أيديهم فيه، ويمنعون أيا كان عن القيام بذلك ؛ ويكونون احتراماً جليلاً لكل المجاري المائية (...)»⁸.

ويحكي بلينيوس قدوم المجوسي تيريدات (Tiridate) إلى روما للقاء نيرون (Néron)، ورفضه ركوب البحر في سفره، لأن المجوس، حسب بلينيوس، يعتقدون أن البصق في البحر أو تنجيسه يجلب الشؤم لصاحبه :

¹ - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، القاهرة، بدون تاريخ، ص. 95.

² - ابن قتيبة، أدب الكاتب، الطبعة الرابعة، القاهرة 1964، ص. 72.

³ - «الثالثة "الشمال" : ويقال فيها شمال وشمال وشامل وشامل مهموزا وغير مهموز ؛ ومهيها من حد القطب الشمالي إلى مغرب الشمس، وسميت شمالا لأنها على شمال من استقبال المشرق» ؛ انظر : صبح الأعشى للقلقشندي، ج 2، ص. 185.

⁴ - « قيل سميت ربح الصَّبا، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها ورَّوحها. والصَّبوة المِيل. وجاء في بعض الآثار : ما بُعث نبي إلا والصبا معه، وهي الريح التي سُخرت لسليمان... وعن رسول الله ... أنه قال "نُصرت بالصَّبا، وأهلك عاد بالذَّبور" ». انظر : النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، القاهرة، بدون تاريخ، ص. 97-99 ؛ و صبح الأعشى للقلقشندي، ج 2، ص. 185 : « وأصول الرياح أربعة : الأولى "الصَّبا" : وهي التي تأتي من المشرق، وتسمى القبول أيضا، لأنها في مقابلة مستقبل المشرق. قال في صناعة الكتاب [لأبي جعفر النحاس] : وأهل مصر يسمونها الشرقية، لأنها تأتي من مشرق الشمس، وهي التي نُصر بها النبي يوم الأحزاب كما أخبر بقوله "نُصرت بالصَّبا" ».

⁵ - انظر : صبح الأعشى للقلقشندي، ج 2، ص. 185 : « الثانية "الذَّبور" : ومهيها من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبي، وسميت الذبور لأن مستقبل المشرق يستدبرها، وتسمى الغربية لهوبها من جهة المغرب، وبها هلك عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : "وأهلك عاد بالذَّبور" ».

⁶ - المبرد، الكامل، المجلد 2، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص. 54.

⁷ - HESIODE, *Les travaux et les Jours*, Vers 755-759 ; Traduction : Anne BIGNAN, Paris, 1847 : « Si tu arrives au milieu d'un sacrifice déjà commencé, ne te moque point des mystères ; la divinité s'en irriterait. Ne va point uriner dans le courant des fleuves qui coulent vers la mer, ni dans l'eau des fontaines ; garde toi de les profaner ainsi. N'y satisfais pas également d'autres besoins ; une telle action ne serait pas plus louable. »

⁸ - HERODOTE, I, 138.

«لم يرد تيريدات (Tiridate) فعلا أن يأتي عن طريق البحر لأن المحوس يرون أن البصق في البحر أو تنجيسه بإحدى نجاسات الإنسان وخيم العواقب (...)»¹.

وأشار الجاحظ إلى أن «المحوسي لا يتغوط في الآبار والبلاليع لأنه بزعمه يكرم بطن الأرض عن ذلك، ويزعم أن الأرض أحد الأركان التي بنيت العوالم الخمسة عليها بزعمهم (...)»².

وإذا كان أقدم شعراء الإغريق، هيزيود قد نهي في ديوانه "الأعمال والأيام"، كما رأينا، عن التبول في مجاري الأنهار التي تصب في البحر ؛ فإن سكان شواطئ الرباط كانوا يمتنعون بدورهم عن البصق والتبول ورمي القاذورات في البحر، شأنهم شأن الإغريق القدماء، لأن البحر مجال طاهر لا ينبغي تنجيسه، وراكبه يجب أن يكون متطهرا، ومن لا يتقيد بهذا النهي فإنه سيصاب في زعمهم بالصرع حتما.

ولقد ورد في الحديث: «خمس يورثن النسيان : أكل التفاح، وسؤر الفأرة، والحجامة في النقرة، ونبد القملة، والبول في الماء الراكد»³.

وجاء في مسرحية *Le Satiricon* :

«الكل يعلم فعلا أنه محرم على كل إنسان يمتطي سفينة أن يخلق شعره أو يقلم أظفاره، إلا حينما تعصف الرياح ويهيج البحر. وكان هذا الإثم يعتبر نذير شر كان على رب السفينة أن يظهر سفينته منه»⁴.

ولاحظ برونو (L. Brunot)⁵ أيضا انتشار هذا الاعتقاد في داخل البلاد حيث يمتنع الأهالي عن التبول والبصق ورمي القاذورات في الأنهار خشية من عقاب عفريت من العفاريت الساكنة فيها، الشيء الذي دفع برونو إلى الاعتقاد بأن هناك تداخلا بين عبادة البحر وعبادة الماء العذب ؛ كما لاحظ هذا الباحث تدخل عفاريت الماء في هذه المعتقدات.

ويبدو، حسب دوسو (R. Dussaud)⁶ أن المعرفة التي كانت للكنعانيين بخصوص العيون البحرية جعلتهم يعتقدون أن البحر والمياه الجوفية خاضعة لنفس الإله :

«قبل اتخاذهم بعل (حداد) إلها، كان الكنعانيون يعبدون إلها يسهر على جريان العيون ومياه الآبار... وهو الإله

أليان (Aliyan).

ووسع أليان بعل مجال سيطرته على البحر لأن الشاطئ الفينيقي يتميز حسب القدماء بخاصية تكمن في أن العيون تتفجر في البحر».

¹ - PLINE, H.N., XXX, 17 ;

وملف (هرمان)، موبى ديك، ترجمة د. إحسان عباس، بيروت 1965، ص. 32.

² - الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص. 370.

³ - الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص. 269.

⁴ - PETRONE, *Le Satiricon*, Gallimard 1969, p.150 ;

وانظر في المسرحية نفسها وصف العاصفة وتحطيم السفينة : ص. 168- 170 .

⁵ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 4.

⁶ - DUSSAUD (R.), *Les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens*, in : *Les anciennes Religions orientales*, II, Paris 1945, p. 356.

ومن بين الأدلة التي تثبت، حسب برونو (L. Brunot)¹، قدسية البحر في اعتقاد بحارة الرباط وسلا، زعمهم بأن التوضؤ بماء البحر له قدرة على التطهير ومزايا تفوق بكثير مزايا التوضؤ بالماء العذب، وهو ما اعتبره برونو تأثيرا للشعائر الوثنية في بعض شعائر الإسلام. ألم يكن الإغريق يعتقدون أن التطهر بماء البحر أكثر فعالية ونفعا من التطهر بالماء العذب² ؟

وجرت العادة في بلاد الإسلام أن لا يركب المرء البحر إلا متطهرا، وأن يتلو بعض الآيات القرآنية لتجعله في مأمن من مخاطر البحر، وما أكثرها قديما. ويقول الزياتي³ في هذا الأمر :

«... ومما شافهنا به [أبو البركات سيدي مبارك ابن الفقيه العلامة سيدي عمر الصائغي بقسنطينة في الجزائر] بعد السلام عليه والجلوس معه وسؤاله، أن قال لنا إن أردتم ركوب البحر فعندما تضعون أرجلكم في زورق المركب فاذكروا التعوذ بالله وبالسمة والفاخرة، واذكروا الفاتحة خصوصا سبعا، فإنها أمان من الغرق والحرق والأسر، (...).»
ويروي پلينيوس أنه لتهدة الرياح، كان القدامى يلجؤون إلى إظهار امرأة عارية. وكان سكان الرباط، حسب برونو (L. Brunot)⁴، كلما أرادوا أن تكف السماء عن الإمطار، لجأوا، شأنهم شأن قدامى پلينيوس، إلى فتاة عذراء عذراء والأكبر سنا في عائلتها، لتتوجه إلى السماء بقولها : «صحاي ولا ندرى» (اصحي وإلا كشفت عن عورتني). وإذا ما استمرت السماء في الإمطار شمرت تنورتها ووجهت مؤخرتها نحو السماء !

تجلت عبادة آلهة البحر والتقرب إليها في المغرب القديم في مظاهر شتى ؛ واستمرت بعض هذه المظاهر حتى عصرنا.

ولقد حاولت تقصي آثار عبادة الآلهة البحرية الفينيقية-البونية الأصل في المغرب القديم واستعراض بعض الأدلة والممارسات التي تؤكد تقديس أهالي الشواطئ المغربية للبحر خلال العصر القديم، وهي ممارسات تذكرنا بنصائح المؤلفين القدامى هيزيود وپلينيوس وغيرهم... وذكرت ما رواه هيرودوت بخصوص الليبيين القدامى الذين خصوا پوصيدون بالعبادة دائما وعرفوا الإغريق به ؛ وتوقفت عند وصف سكولاكس للهيكل الذي كرس لنفس الإله فوق شناخ صوليس (رأس كنطان)، في موضع «تحذره المراكب» على حد تعبير أبي الفداء الذي قد يؤكد صحة رحلة حنون ؟ ورأينا في عجالة أن أهالي شمال إفريقيا عبدوا نيبتون قديما، ليس في المناطق الساحلية فحسب حيث عبده كإله البحر، بل حتى داخل البلاد، وبصفة خاصة في العيون التي اعتبر هذا الإله سيدها أيضا... وهو الإله الذي عثر على بعض تماثيله في ويلي، كما هو الشأن بالنسبة لقناع إله البحر المحيط أو الفسيفساء التي تمثل ذات الإله في ليكسوس. ولعل أسطورة سيدي مغدول في الصويرة وما تتضمنه من بقايا تتعلق بنيبتون وخصائصه، أو "خيل الريح" في شواطئ الرباط ودكالة وما تتضمنه

¹ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 20.

² - REINACH (S.), *Orpheus. Histoire générale des religions*, Paris 1930, p. 139 :

«(...) ولنلاحظ أنه في اليونان أيضا، كان ماء البحر يعتبر أكثر نفعا في عمليات التطهير».

³ - الزياتي، الترجمة الكبرى ، ص 153.

⁴ - BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé*, p. 40.

من آثار خصائص پوصيدون (العربة التي تجرها خيول وثّابة وطحلبية اللون...)، من بين الآثار الواضحة على عبادة الأهالي القدامى في المغرب لآلهة البحر. واستوقفتني أيضا ظاهرة تقديس الأسماك في بعض المواضع المغربية (شالة، وتطوان، وفاس...)، وهي ظاهرة كانت جد مألوفة في بلاد الإغريق والرومان. ولعل تزيين بعض الأواني النحاسية في المغرب بنقوش تمثل أسماكاً تعتبرها العامة فأل خير، من بقايا طقوس تقديس السمك في المغرب القديم ؟

فتقديس القدامى للبحر وبعض أسماكها أو عبادة آلهته وتعظيم كائناته ظواهر متوسطة راسخة في معتقدات شعوب حوض البحر المتوسط وعقلياتهم الجماعية.

فهل يتعلق الأمر بتوارد أفكار بين سكان ضفاف المتوسط، بحيث قد تكون هذه الظواهر عرفت انتشاراً بين سكان المغرب القديم من غير نقل أو سماع ؛ أم أنها وصلت إلى المغرب عن طريق الفينيقيين واليونانيين أو الرومان من بعدهم ؟

مصطفى غطيس

mghottes@hotmail.com